التراث الأرثوذكسي

ISSN 1814-7038

السنة العشرون، العدد الرابع، كانون الثاني ٢٠٢٤

مختارات آبائية / حياة روحية / كتاب مقدس / لاهوت

القديس ثيوفان الحبيس، عظة في عيد لقاء السيد (الدخول)

القديسة أرسانيا من دير أوست ميدفيديتس، حالة النفس البشرية ونُسك التوبة طريق وصايا المسيح

أسرة التراث الأرثوذكسي، الكهنوت بحسب القديس سمعان المترجم – ٤

الأرشمندريت زخريا زخرو من دير آسكس، الدموع: شفاء الإنسان

ماتيو نعمة، القديس رافائيل هواويني في الرد على بابا روما

عظة في عيد لقاء السيد (الدخول)

القديس ثيوفان الحبيس
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

يا له من مشهد رقيق يُظهره لنا لقاء الرب! الشيخ سمعان الموقر يحمل الإله الرضيع بين يديه، وعلى جانبيه يوسف البار ووالدة الله الفائقة القداسة. وعلى مسافة غير بعيدة النبية حنّة، صوّامة ذات ثمانين عاماً وامرأة صلاة. عيونهم كلها موجهة نحو المخلّص. اهتمامهم منصب عليه وهم يشربون منه العذوبة الروحية التي تغذي نفوسهم. يمكنك أن تحكم بنفسك كم كانت حالة هذه النفوس مباركة!

ولكننا أيها الإخوة مدعوون ليس إلى التفكير في هذه البركة وحسب، بل وأيضاً إلى تذوقها في الحقيقة، لأن الجميع مدعوون إلى أن يمتلكوا الرب ويحملوه في ذواتهم، ويختفوا فيه بكل قوى روحهم. وعندما نصل إلى هذه الحالة، فإننا لن نتبارك أقل من الذين شاركوا في لقاء الرب. إنهم تباركوا إذ قد شاهدوا هذا اللقاء؛ وسوف نتبارك نحن الذين لم نرَ ولكننا آمنَّا. انتبهوا. سأوضح لكم بإيجاز كيف يتحقّق ذلك. هاكم ما يجب عليكم القيام به.

١. أولاً، توبوا. تذكروا أنه لا ينبغي فعل أي شيء في الحياة الروحية بدون توبة. مهما كان ما يسعى إليه الإنسان، فلتكن بدايته التوبة. كما أنه لا يمكن بناء منزل بدون أساس، ولا يمكن زرع أو غرس حقل دون تنقيته، كذلك أيضاً بدون التوبة لا يمكننا أن نبدأ بحثنا الروحي. وكل ما يبتدئ بدون توبة يبتدئ عبثاً. لذا، توبوا أولاً، أي نوحوا على كل سيئ فعلتموه، واعقدوا العزم على أن تفعلوا فقط ما يرضي الله. سيكون هذا بمثابة توجيه نظركم وجسدكم كله نحو طريق لقاء الرب، واتخاذ الخطوة الأولى على هذا الطريق.

٢. بعد ذلك، حافظوا على حالة التوبة هذه ثابتةً؛ ضعوا لنفوسكم أسلوب حياة وسلوكاً يجعل من كل خطوة أو حركة شيئاً يوجه انتباهكم إلى ربنا ومخلصنا. إنَّ نظام حياة كهذا سيتأسس بشكل طبيعي إذا: أ) قمتم بكل ما تفعلونه لمجد الرب والمخلص، من أجل المسيح. ولا نعني هنا الأعمال العظيمة فحسب، بل كل الأعمال. لأن الرؤية والسمع، والصمت والتحدث، والطعام والشراب، والجلوس والمشي، والعمل والراحة، كلها يمكن أن تكون مكرسة للرب وتتقدس باسمه الكلي القدوس. لا توجد دقيقة لا نفعل فيها شيئاً ما؛ لذلك، بتكريس نشاطكم تقابلون الرب دقيقة بدقيقة، وتوجهون كل أنشطتكم إلى مجده. يمكنكم القيام بذلك بسهولة أكبر وجني الثمار منه إذا قمتم أيضاً بـ : ب) إدخال ممارسة الصلاة في نظام أنشطتكم اليومية – سواء في الكنيسة أو في المنزل؛ وبشكل عام، اتبعوا قاعدة أن تكونوا ملتزمين بدقة بجميع قواعد ونظام الكنيسة المقدسة حتى النهاية، دون إسهاب عبثي وتعليقات مشوهة، وببساطة قلب. بما أن محتوى كل الصلوات هو الرب وتوجّهنا إليه، فبممارستها والاشتراك فيها تقابلون الرب من خلال وجدان قلوبكم وابتهاجها. من ثمّ إذا: ج) ملأتم كل وقتكم الحرّ بقراءة الكتب المقدسة عن الرب، أو الاستماع إلى المحادثات عنه، أو بتأملكم الشخصي فيه وفي عمل الخلاص العظيم الذي عمله على الأرض، فسوف ترون بأنفسكم ما يلي: أنه لن يبقى في داخلنا أو خارجنا ما لا يستحضر ذكر الرب، أو يلفت انتباهنا إليه، أو يحمل روحنا على لقائه.

٣. على المنوال نفسه، لا تنسوا أن كل هذه الأعمال والأتعاب هي مجرد تحضير. لا ينبغي أن تتوقفوا عندها، بل عليكم أن تسعوا إلى الأمام. وكما أن الطعام الذي يُستَهلَك فجّاً يُشبِع الجسد لاحقاً بالعناصر النقية اللازمة للحياة، كذلك يجب أن تتحول هذه الأعمال التي تؤدّى بشكل مرئي وملموس إلى ميلٍ سامٍ أو سعي نحو الرب. بعبارة أخرى، إن العمل على تكريس كل أنشطتنا للرب يجب أن يكتسب صفة الوصول بكل رغبة نفوسنا إلى الرب فقط؛ عندما نؤدي صلواتنا أو نشترك بالخِدَم الإلهية، يجب أن يتشكّل في قلوبنا شعور بالانسجام فقط مع الرب وما هو له. إن الأساس الذي عليه نقرأ عن الرب ونسمع عنه في الكتاب المقدس يجب أن يكون توجيه انتباه أذهاننا بشغف نحو الرب وحده. هذه الأعمال هي العمل في الحقل بحد ذاته، وهذه الجهود هي

نمو ما تم بذره. الأول هو الجذع والفروع، والثاني هو الزهرة والثمر. عندما تظهر هذه الميول فينا، فهذا يعني أن روحنا قد خرجت بكل وعيها واستعدادها للقاء الرب. وبما أن الرب موجود في كل مكان، وهو نفسه يسعى للقاء أرواحنا، فإن لقاءهما المتبادل سيتم من تلقاء ذاته. منذ تلك اللحظة تبدأ أرواحنا بتذوّق بركة سمعان الصديق. أي أنها تبدأ في أحضان قواها بحَمل السعي إلى الرب الذي هو رضاها وشبعها الكامل. هذا ما يُسمى تذوق الرب، والراحة فيه، والوقوف عقلياً أمام الرب، والسير في حضرة الرب، والصلاة المستمرة – مبتغى عمل جميع قديسي الله ورغبتهم وسعيهم.

أتمنى أن يُمنح كل الذين تحتفلون بلقاء الرب هذه البركة. إذا اشتكى أحد من أنه يرغب في الثمار إلا أن العمل للحصول عليها صعب للغاية، فالجواب هو: جيد. هناك طريقة أسهل، وطريقة أبسط من تلك المذكورة. ها هي! تُبْ؛ ثم، بغيرة لحفظ كل وصايا الله، اسلكْ بلا كلل في حضرة الرب، ساعياً إليه بكل انتباه عقلك، وكل مشاعر قلبك، وكل رغبات إرادتك. إذا وضعت نفسك بهذه الطريقة فسوف تقابل الرب قريباً. سوف ينزل إليك ويسكن فيك، كما في حضن سمعان الصديق.

ما من طريقة أخرى لتخفيف الجهد اللازم للسعي إلى لقاء مع الرب. صلاة يسوع: أيها الرب يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني، هي قوية وقادرة على المساعدة في هذا العمل. ولكنْ، أكرر مرة أخرى، لا لوحدها؛ بل بشرط أن تكون كل قوة أرواحنا موجهة نحو الرب! اُصْحُوا وَاسْهَرُوا (١ بطرس ٥: ٨). فَاطْلُبُوا مَا فَوْقُ... وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ (كولوسي ٣: ١، ٣). حينئذ، إذ قد أصبحتم واحداً مع الرب في الروح (راجع ١ كورنثوس ٦:١٧)، تنظرون إلى الرب وتعانقونه، فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ، وَلاَ يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ(يوحنا ١٦:٢٢). لا في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي. آمين.

Source: St. Theophan the Recluse. Homily on the Meeting of the Lord. translated by Nun Cornelia (Rees). Pravoslavie. 3/14/2013. https://orthochristian.com/44773.html

حالة النفس البشرية ونُسك التوبة

الجزء الثاني من "إرشادات روحية للقديسة أرسانيا من دير أوست ميدفيديتس"

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

معرفة الذات

في تربة التواضع تنمو ثمار جيدة. إن النفس، من خلال إدراكها لإثمها، تتوصل إلى معرفة الربِّ بالإيمان. بالمقابل، ما الذي ستدركه النفس من خلال الغرور أو تعرفه لتخلص؟ وما الذي يمكن لل"أنا" أن تقدِّمه مهما كانت حسنةً ومزيَّنة بالصلاح؟ إنها لا تعطي النور ولا الحياة. تكمن في "الأنا" قوة مريعةٌ تحارب جميع وصايا الله وتحارب الآخرين وتحارب الله نفسه. إنها قوة تقتل نفس الإنسان ذاتها، حارمةً إياها من الصلاح والحياة والله. في لحظات السلام يصعب تبيُّن طبيعة الروح المحرِّك لجميع أفعال الإنسان، حتى الصالحة منها، حتى الرغبة بالخلاص والصلاح والله. ولكنْ، في خضمِّ التجارب، تتكشف الأمور التي لم تكن جلية سابقاً. إذا ما سادَ الربُّ على النفس، يكون وقتُ التجربة وقتَ انتصارات وأكاليل للنفس ووقت راحة عظيمة. إذا ما تحكَّمت ال "أنا" بأفعال الإنسان فإن قوَّتها تتفعَّل خلال التجارب وتعذب النفس المسكينة كما لو أنها سجينة وتقودها إلى أقصى دركات الجحيم.

ومع ذلك فإن هذه اللحظات أفضل من السلام الوهمي. يمكن للنفس في هذه اللحظات أن تفهم حالتها بحقٍّ، ولا تخدع ذاتها بصلاحها الخيالي، ولا تعتبر مفاهيم الذهن ملكاً خاصاً بها. في وقتٍ كهذا، إذا ما تأمَّلت النفس كلَّ شيء في هذه اللحظة المباركة تأملاً صحيحاً، فإنه يمكنها أن تنحني كثيراً. وإذا ما قبلت أن تُحب ضِعتها وفقرها المطلق، وإذا ما فضَّلت القريب والربَّ، فإنها ستفرح بأنَّ الله وحده هو المتعالي وأن هناك أجزاءً من طبيعتها تقترب منه، فعندها ستذوق التعزية من الصَّلاح الذي لا ينشأ عن الأنا، بل ينتج عن شعورها بالخزي.

حالة النفس البشرية

إن حالة نفس الإنسان الخاطئ الساقط تتوافق تماماً مع كلمات الرب: "شوكاً وحسكاً تنبت لك [الأرض]" (تكوين ٣:١٨). إن أرضَ قلبنا تنبت أهواءً وخطايا باستمرار. النفس التي لا تظللها نعمة الله يكون نشاطها الموجّه نحو تنقية القلب صعباً وثقيلاً وواهناً دوماً "بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأكُلُ خُبْزاً" (تكوين ٣:١٩). يتم اجتثاث الأهواء مثل الأشواك من الأرض بصعوبة بالغة وجهاد طويل الأمد، ومجدداً، بقليل من الإهمال وأثناء لحظات جذّابة، تكون هذه الأهواء على استعدادٍ لتولد من جديد، وستولد وتنمو في القلب، خانقةً بذرة كلمة الله التي لم يكن لديها الوقت لتتجذر وتنمو وتتقوى داخل القلب. عندها لن تؤتي ثمارها فحسب، بل تغذي النفس أيضاً. ما إن يتنقى المصدر، أي ذهننا، بصعوبة بالغة، حتى تقلقه سيول الأفكار الدنسة مجدداً، وتملأه بعدم الطهارة، وتمنع النفس العطشى من شرب المياه النقية التي للإعلانات الإلهية. "بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأكُلُ خُبْزاً".

إن النفس تتعب، بل وعليها أن تتعب، بعرق دموي لئلا تهلك جوعاً. وبواسطة هذا العمل المجدِّ المستمر، لا تسمح النفس لأشواك الأهواء أن تنمو داخلها مجدداً محولةً إياها إلى قفرٍ. ويمكن للنفس، عبر التنقية المستمرة وقطع الأهواء، أن تتغذى من الخبز اليومي الذي يزرعه الزارع العظيم في أرضها. إن الربَّ لا يترك أتعاب الإنسان بلا مكافأة. حين تظلل نعمة الله النفس فإنها تحرق أشواك الأهواء وتؤتي بنفسها ثماراً. "مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ... وتَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيّ" (يوحنا ٦:٥٤ و ٧:٣٨). في هذه الحالة وحدها لا تعود النفس تشتهي أن تشرب من الينابيع الأرضية. يتمثل عملنا أيضاً في التنقية التدريجية لهذه الينابيع الأرضية، على الأقل لكي نشرب مياهاً نقيةً منها قطرةً قطرة، ولا نخرج الضفادع ومختلف أنوع القذارات من المياه الموحلة. *بعرق وجهك تأكل خبزك* إلى أن يُطعمك الخبز النازل من السماء.

تأديبات الرب

يقول القديس يوحنا السلمي :"إن قصاص الإنسان المتكبر هو سقطته". إن الربَّ يستخدم هذا القصاص بحكمةٍ كعلاج للكبرياء. ولكنَّ كل أعمال العناية الإلهية وما يسمح به الله من قصاصٍ تكون لخيرِ الإنسان فقط عندما يسعى لتحقيق غاياتٍ سماوية. إذا ما وضع الإنسان نصب عينيه خلاص الله كغايةٍ وحيدةٍ لحياته، فإن كل شيء يصيبه يخدم نجاحه في هذه الغاية. عندما يُحرم الإنسان من كل خيرات الأرض، ويحتمل ويقبل **الضربات التي تصيب جميع حواسه، عندما يحتمل الخزي وما هو** أكثر من ذلك من أمورٍ يمكنها أن تسحق أقوى نفسٍ، إذ يجعل بعض الخير على الأرض هدفاً لبحثه، فإن النفس المحِبّة لله تتلقى عندها القوة والحكمة والحرية. وإذا ما خسرت النفس شيئاً في خضم هذه الأحزان التي تصيبها فإنها لا تخسر سوى ذاك الارتباط بالأهواء، والذي قيَّدها بحيث لم يعد بمقدورها كسر ذاك القيد بإرادتها وحدها، وإنما بسبب الأهواء يمكن كسر القيد بعمل الله فقط. إنها لبركة عظيمة ألا يكون المرء مستعبداً لأي شيء أرضي، ولا حتى في ما تطمح إليه النفس، إذ عندها كل أفعال الله التي تهدف إلى الخلاص ستحقق المنفعة.

النفس التي تنبذ الأهواء تنال حس الفضائل. وبعد أن تتخلى عن الشهوانية، فإنها تختبر التواضع، وما إلى ذلك. بعد أن تنكر رغباتها، وإرادتها المُحِبّة للخطيئة وأسبابها، تُقاد إلى معرفة إرادة الله. وفي التحقيق الفعال لمشيئة الله التي كُشفت لها من أجل المنفعة الخلاصية لآخر، فإنها تستنير بالإعلانات الإلهية. وبمجرد استنارتها، لا تدخل إلى النقاوة وحسب، بل أيضًا إلى عدم الهوى.

حول الحالات الروحية المختلفة

لا يمكن أن تكون هناك رؤية سليمة لخطيئتنا ونحن في حالة الموت. ليس لدى الإنسانِ الميت عينان ليرى ولا لسان ليتضرع. في هذه الحالة لا يمكن أن يكون هناك سوى الإيمان – غير الحي، ولكن الثابت غير المتزعزع – بأن الخالق يستطيع إعادة خلقه مجدداً، بحسب مسرَّة صلاحه ومشيئته الكلية القداسة التي ترتب كل شيءٍ لخلاص الإنسان. حين تبدأ العينان بالانفتاح، فإن رؤية المرء لخطيئته لا تكون قسريةً، بل حالةً طبيعيةً للنفس، وصرخةُ النفس المستمرة طلباً للرحمةِ تكون تلقائية أيضاً. ولكنَّ الانتقال من حالةٍ إلى أخرى لا يمكن أن يتم بإرادة ذاتية. يمكنك بالطبع الوصول إلى هذه الرؤية بنفسك، لأن الذهن الذي اغتنى بقراءة كلمة الله يمكنه دخول أية حالة روحيةٍ عبر المخيلة، ويمكنه إثارة الحواس وتحريكها لبرهةٍ، وإيجاد راحةٍ في ذلك، ولكنَّ هذا ليس السبيل الصحيح، وهذا العمل غير مثمر. ما تحصل عليه بنفسك عليك المحافظة عليه بنفسك وسوف تخسره بكل تأكيدٍ عند أول تصادم مع الحياة والواقع، لأن هذه الحالة كاذبة ووليدة الأحلام والمخيلة. وما يأتي من الرب، أي تلك الحالة التي يقود الربُّ النَّفس إليها، هي حالة أبدية غير متغيرة. ليس هذا الأمر عملاً تقوم به النفس، بل هو حالتها. يمكنها خسارة هذه الحالة فقط إذا انحرفت تماماً عن الطريق الروحي الصحيح، وأما الصراعات الخارجية، بل وحتى ضعفاتها وأهواؤها، لن تسلبها ما باتَ ميراثها الأبدي.

الشيء الوحيد الذي نحتاجه

الأمر الوحيد الضروري، الأمر الوحيد الذي نحتاجه، الأمر الوحيد الذي يمنح الخلاص والحياة للروح، الغاية الوحيدة التي تسعى إليها جميع النفوس وجميع الأرواح الملائكية هي الرب. ولكن الأمر يتطلب عملاً شاملاً حتى يبلغ كلُّ شيء هذه الغاية الواحدة، حتَّى يتحد كل شيء في النفس في "الواحد" الذي تطلبه ، حتى تبحث النفس عن الربِّ في كل شيء، وتطلب الخير المؤدي إليه، وتنكر ذاتها والشرَّ الذي يصرفها عن الربِّ وينمّي أناها.

حول النسك

كيف يجب أن يكون نسكنا؟ وما هو هدفه؟ يجب أن ينطوي نسكنا على إيقاظ الجسد من خموله وكسله كي يقف بانتباهٍ في الكنيسة، وعلى المساعدة في تعافي الجسد من القنوط وتعافي الذهن من الأفكار البطالة وتعافي القلب من المشاعر الأهوائية، لكي يقف الإنسان الداخلي بشكلٍ كامل أمام الرب. هذا هو هدف كل الأعمال النسكية. ولكن هل سيقودنا الرب إلى تحقيق هذه الغاية المنشودة؟ مجدداً، ليس من حقنا التفكير في هذا، ولكنَّ التخلي عن نسكنا سيكون خطيئة. وحده القنوط ، مدعوماً بعدم الإيمان، ومبنياً على المتعة، يمكنه إهمال النسك بعد أن يجعل هدفه إشباع رغباته الأهوائية.

نسك التوبة

النسك صعبٌ وطويل الأمد، ولكنه أمرٌ عظيم وحقيقي. وبما أنه حقيقي فإنه ممكن بمؤازرة نعمة الله. فعلاً هذا هو السبيل الحقيقي الوحيد. علينا أن نثمر أثمار التوبة: علينا أن نتعب حيث خطِئنا، وأن ننهض حيث سقطنا، وأن نصلح ما قد تهدَّم، وأن ننقذ ما قد خسرناه نحن بإهمالنا وبأهوائنا. الخلاص ممكن في كل مكان وكل أمر. لا حاجة لطلب الخلاص خارجنا، يمكن إيجاد كل شيء داخل نفوسنا، الملكوت والجحيم كليهما. إذا ما وجدنا الجحيم هناك، فإنه، بنعمة الله، وبالعمل على أنفسنا جاهدين، يمكننا إيجاد الملكوت أيضاً. هناك ظرف واحدٌ يكون فيه الهرب والتغيير المصيري للحياة مسموحين، وذلك حين يصل ضعفنا إلى أقصى حدوده، وحين لا تملك النفس قوة ليس للعمل وحسب بل وللاحتمال أيضاً، حين يوجد عجزٌ جسدي مترافق مع ذلك.

خطايا البشر

بتعدّينا وصايا الله فإننا نخطئ إلى الله والناس كليهما، وإلى ضميرنا ذاته، ونخضع لا لدينونة الله فحسب، بل ولدينونة البشر أيضاً. عندما نخطئ إلى الربِّ ونهين مجده داخلنا فإننا نؤذي الآخرين باستمرارٍ، إذ نعرّضهم للتجربة ونجذبهم إلى الخطيئة جاعلين من أنفسنا مثالاً لهم في الحياة الخاطئة ولا نقدم لهم العون في طريق الخلاص، وهكذا فإنَّنا نسلِّم بعدلٍ إلى دينونة البشر. تتجلى هذه الدينونة في الإدانة والذمِّ والافتراء والكراهية وجميع الأفعال التي تنتج عن مثل هذه النظرة إلينا: يجب قبول الاضطهاد والعذاب والموت كمجازاةٍ نستحقها بعدلٍ؛ يجب أن نشعر دائمًا بأننا مدينون للآخرين.

الأهواء

إن للأهواء قوةً وسلطةً على الإنسان لدرجة أنَّه إذا استسلمنا لها مرةً نصبح أسراها، وتكبِّلنا ولا تعطينا فرصةً للتحرر. تعمي الأهواء أذهاننا وتمنعنا من رؤية أنفسنا ورؤية طريقنا بوضوح. احذروا من إطلاق العنان لأهوائكم، وعوضاً عن ذلك كرِّسوا أنفسكم للعمل بوصايا الله لتكونوا عبيد الله.

حول الأحزان

عبر التسبب بالأحزان، يتقوّى العدو في تدمير النفس، دافعاً إياها إلى القنوط والتذمر ونقص المحبة تجاه الآخرين. والله، في سماحه بهذه الأحزان، يشاء أن يخلص النفس بإعطائها فرصة للجهاد من أجل الصبر الشجاع والفهم الروحي وأخيراً التواضع، عندما تتجاوز هذه الأحزان حدود قدرتنا. تقف النفس فيما بين هذه الطرق، وحيثما تميل فإن ذلك الطريق يقبلها ويقودها إلى هدفها.

ذكر الموت

من الجيد أن يحوز المرء تذكّر الموت، ولكن بفهمٍ، وعندها فإنَّ تذكر الموت يفيد في نكران الذات والانسحاق وانكسار الروح والتواضع. أما إذا أدى إلى اليأس فإن ذكر الموت بحد ذاته لن يقود إلى الخلاص بل إلى الدمار.

في أوقات اليأس، من الأفضل تذكّر رحمة الله وصلاحه والعطايا التي يرسلها إلينا والخلاص الذي يمنحنا إياه وظروف الحياة وسقطاتنا.

كل شيء جيد في أوانه، ولكن حتى أفضل الأمور يمكن أن تسبب ضرراً إذا ما أتت في الوقت الخاطئ. ولكنَّ هنالك عملاً واحداً يكون دائماً في الوقت المناسب، ألا وهو تواضع الروح، وهو أفضل جميع الأمور.

حول الاضطراب الروحي

دائماً ما ينصح الآباء القديسون بعدم اتخاذ أي قرارٍ خلال فترة الاضطراب الروحي. حين نكون مرتبكين بالروح لا يمكننا التفكير بمنطقٍ سليم وعقلاني، بل ولا يمكننا التوصل إلى معرفة مشيئة الله بضميرٍ صافٍ وقلبٍ مطمئن. القلب والروح كلاهما مضطربان، والنفس غير قادرة على رؤية شمس الحق.

Source: St. Arsenia of Ust-Medvedits. The State of the Human Soul and the Asceticism of Repentance. Spiritual Instructions of St. Arsenia of Ust-Medvedits. Part 2. Translation by Jesse Dominick. Azbyka.ru. 10/26/2023. https://orthochristian.com/156923.html

طريق وصايا المسيح

الجزء الثالث من "إرشادات روحية للقديسة أرسانيا من دير أوست ميدفيديتس"

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

حول القنوط ورحمة الله

كيف يمكن ألا تقع النفس في القنوط حين تبقى لوحدها مع خطاياها وأهوائها وضعفاتها؟ كيف لا تقع في اليأس عندما لا ترى داخلها سوى الشر والدَّنس، وليست لديها القوة للخروج من حالة الهلاك هذه ولا يمكنها حتى رؤية المخرج الذي يمكن أن تسلكه؟ ولكنْ، عندما تلتفت إلى الله وتُكشَف لها أعماق رحمته للبشر وطُرق عنايته الصالحة التي تُخلّص الإنسان التائه، وعندما تبدأ بطلب خلاصها في لجة الرحمة، عندما تسلك بالإيمان وحده سبيل عنايته التي تخلصنا بشكلٍ غير موصوف، فإنها تحطّم كل الشكوك التي في داخلها، وتشعر عندها بالقوة والسلام والتعزية. عند ذلك يغادر اليأسُ الكئيب النفسَ، وتتدحرج صخرة انعدام الحس بعيداً.

السلام والفرح هما ثمرة التواضع. هنا هو الميناء الذي وجد فيه كل النساك راحتهم، كل الذين حزنوا في نفوسهم، وكل الذين عطشوا إلى الخلاص. لا تخشَ خسارة كل شيء لكي تكتسب التواضع، لا تخشَ اجتياز صحراء اليأس حيث تخسر النفس كل شيء وتكون النفس الفقيرة العديمة الحس عاجزة عن الحراك. من المرجح أن يبلغ المرء التواضع على هذا الطريق عبر إنكاره لذاته.

في المحبة

المحبة حسنة لأنها تمنح الحرية. إنها لا تُحَدّ في حيث تستطيع أن تلاحق مَن تحب، بل على العكس فإنها تتبعهم حتى إلى الجحيم. ولهذا فهي قوية، وقد أصعدت أكثر من مرة أحبائها من قعر الجحيم.

إذا كنت تحب قريبك لأجل ذاتك، فلا بد أنك تريد إتمام رغباتك وإرادتك الجسدية. وإذا كنت تحب قريبك لأجل ذاته، فلا بد أن تتمم إرادته ورغبته. أما إذا أحببت قريبك لأجل الرب، فعندها لا بد أن تسعى جاهداً إلى إتمام مشيئة الله في علاقتك به وأن تسلك بلا لومٍ في برِّ الله. فلنُحبَّ قريبنا لأجل الربِّ. يجب أن ننفصل، لا عن البشر ولا عن الأشياء، بل عن ولعِنا بهذا أو ذاك.

حول رحمة الله

إن رحمة الله تغفر خطايانا وتحمل ضعفاتنا وتحتمل آثامنا. نحن لسنا بحاجةٍ إليها وحسب بل أيضاً إلى بركات الله التي تنقّينا من آثامنا وتنير أذهاننا لمعرفة مشيئته وتقوّي روحنا لنلتمس ما يرضيه وتوجّه إرادتنا إلى العمل بوصاياه.

عندما تدرك النفس كم هي بحاجة إلى بركات الله وترى كم أنَّ هذه البركات تنفعنا في حياتنا الداخلية والخارجية، فإنَّها تتمكن من الصلاة إلى الله بقلب منسحقٍ وشاكر، وفقط عندها تكون الصلاة هي الكلمة الحية للنفس. اقتيد النبي القديس داوود إلى معرفة الربِّ الرحيم والمُحسن. لذلك كانت صلاته مليئة بالشكران والتمجيد والانسحاق. وحدها معرفة الإنسان بخطيئته تقوده إلى البحث عن رحمة الله، فقط معرفته بسقمه وعجزه وضعفه الكلي تقوده إلى الربِّ الكليِّ الرحمة.

حول الصمت

الصمت مثمر أكثر من أي كلام.

الصمت كلامٌ وفكرٌ وإحساس: هذا هو نوع الصمت المرغوب به، لأن كل ما تقوله وتفكر به وتشعر به أهوائي وخاطئ

سلام النفس

إن سلام النفس لا يوجد دوماً في السلام والهدوء الخارجيين. بل على عكس ذلك، غالباً، إنْ لم يكن دائماً، ما تثور في النفسِ عاصفةٌ من الأهواء خلال هذا السلام الخارجي. إذا كانت هناك حاجة للتعفف في وقت التشتت، فإن هنالك بالأكثر حاجة إلى الصبر في وقت العزلة. الصبر هو أيضًا قوة حيوية للنفس مع الفهم الروحي، وتمييز التغيرات في الأشياء وكل الأشياء الأرضية، مع الإيمان في القلب وتواضع الروح. الصبر يمنح النفس الثبات؛ يتحول إلى شجاعة ومن ثم لا يعود إحساسًا سلبيًا بل إحساسًا فاعلاً.

حول مشيئة الله

قلبنا فاسدٌ جداً وقد أظلمته الخطيئة كثيراً. إن حياتنا متشابكة للغاية مع رذائلنا، وقد أفسدتها النوايا الذاتية لقلبنا المحب للخطيئة. لدرجة أننا لسنا فقط عاجزين عن إتمام مشيئة الله أو حتى معرفتها، بل وأيضاً لا نسمح لمشيئة الله القدوسة أن تعمل فينا وفي حياتنا. يقول النبي: " الْقِدِّيسُونَ الَّذِينَ فِي الأَرْضِ وَالأَفَاضِلُ كُلُّ مَسَرَّتِي بِهِمْ." (مزمور ١٦:٣). أترون أنه في النفوس المقدسة، وفقط في تلك النفوس، يتمم الرب مشيئته؟ لا يوجد في تلك النفوس ما يعيق مشيئة الله. الخاطئ الذي يعيش في أهوائه يحيا دوماً في تعارض مع مشيئة الله. من الجيد أن يقبل ما يسمح الله أن يحتمله إذا ما تواضع بسماح الله [أي ما يسمح الله بحدوثه له كالأمراض مثلاً]. إن هذا الخضوع المتواضع لما يسمح به الله علامة الخاطئ التائب.

حول الحياة الرهبانية

إن الهدف يوجه ويميز كامل حياة الإنسان المستقبلية ونشاطه، ولذلك فهو في غاية الأهمية.

إذا ما نظرت إلى الجانب الخارجي من الحياة، وبسبب أحزان الحياة رغبت في إيجاد السلام في هدوء الحياة الرهبانية، فإنك مخطئ. إن للدير أحزانه الخاصة ولربما تكون أشد وطأة من تلك التي في العالم. إذا فهمت بروحك بطلان الحياة الأرضية ولم تشعر نفسُك بالرضى هناك، ورغبت في إيجاد الملء في الحياة الروحية، وأن تحيا لأجل الحياة الأبدية، لأجل الله، عندها فإن ما تتوق إليه صحيح.

يُطلب الكثير من الإنسان الذي يروم الخلاص. إن جدران الدير والثوب الأسود، بل وحتى جميع الأتعاب الخارجية للحياة الرهبانية لا تعني شيئاً بدون العمل الداخلي الذي هو الغاية من الحياة الرهبانية. إنه ينطوي على إعادة ولادة كاملة للإنسان بكلّيته، وفي إزالة كل الأمور الأرضية، وفي إماتة كل ما يخصُّه من منطق بشري وأحاسيس بشرية، لكيما يحيا في الله ولأجل الله. بقدر بعد الإنسان عن الله، هكذا تكون الهاوية التي تفصله عن الله، وبهذا المقدار يكون عظيماً عمل إعادة توحيدهما. هذا الطريق ليس صعباً فقط، بل وإنه ليس متاحاً للجميع، وليس مفتوحاً أمام الجميع، ولا يجده الجميع، ولا يسعى إليه الجميع، بل ولا يريده الجميع.

إن هذا الطريق يرغب فيه ويسعى إليه ويجده فقط أولئك الذين دعاهم إليه الربُّ نفسُه. تشعر النفس بدعوة الله عندما لا تكتفي بأي شيء في الحياة الأرضية، وعندما تشعر باستمرار بنوع من عدم الاكتمال، وعندما تسعى إلى اكتشاف الشعور بالخلود في ذاتها ما يقودها إلى الحياة الأبدية ويقربها من الربِّ الأزلي. لا تستطيع النفس مقاومة هذه الدعوة الإلهية: تصبح طائعة ولن تتوقف عن البحث عن الحياة الداخلية والشركة مع الرب إلى أن تجد الطريق المؤدية إلى هذا الهدف، ولن تتوقف عندها بل ستواصل العمل في حقل قلبها، ستذهب أبعد فأبعد بالرغم من أن الطريق يصبح أكثر صعوبة.

إذا كنت لا تقبل بهذا العمل الداخلي ولا تطلب هذا الطريق، عندها لا تذهب إلى الدير. يدخل الناس الدير لكي يُشكلوا أرواحهم في مدرسة الحياة الروحية هذه، ولإيجاد مرشدين وكل الوسائل لاجتياز هذه الحلبة الروحية.

يجب أن نحب أنفسنا

يجب أن نتعلم أيضاً كيف نحب أنفسنا. إنَّه بالتأكيد أمرٌ يجب أن نعمل عليه بالحقيقة. مثلاً، يكون المرء في بعض الأحيان غير عادلٍ تجاه نفسه، فيطلب من نفسه أكثر مما يستطيع أن يعطي. يطلب الغلبة على أهوائه وأحزانه وهمومه، ويغتاظ من نفسه حين يرى بأنَّه يُغلب من تلك الأهواء عينها التي كان قد قرر تركها. ولكنْ، هل سخط المرء على نفسه مبرر؟ كلا، فالإنسان لن يتمكن أبداً من التغلب على أهوائه بقواه الذاتية. إن تجاوز الأهواء فينا يتمّ بقوة الله. هذه القوة كامنة في وصاياه، وعندما يتخذها الإنسان ملكًا له بمعونة الله، عندما تعيش في قلبه، فإن الخطيئة والأهواء تضعف ويتوقف عملها في قلبه تماماً. علينا دوماً أن نُحيي في

قلوبنا الرغبة بالعيش طبقـاً لوصـايا المسـيح. يجب أن نلتمس معونته في الصـلاة، ونتواضـع في انحرافاتنا ونحتمـل ضـعفنا ولا نسـتاء من أنفسـنا بسبب هـذا الضـعف. ففي نهاية الأمر، إذا لم أكن قويةً كفايةً لتخطي الضعف بنفسي، فلماذا أطالب نفسي بشيءٍ وحده الرب يستطيع أن يعطيني إياه؟ لماذا أحزن نفسي لأني لا أتفـوق على نفسي؟ إن طلب النجـاح الـروحي هـذا يكشـف عن كبريائنا. فلننتظـر كل شيءٍ من الـرب الواحـد ونتواضع بعمقٍ في ضعفاتنا وخطيئتنا.

حول النفس والجسد

ترتبط أرواحنا ارتباطًا وثيقًا بالجسد بحيث يشكلان كائنًا واحدًا لا ينفصل. إذا قمنا بتطوير كل القوى الحيوانية في أنفسنا، فسوف نصبح وحشيين. وأعني بالقوى الحيوانية ليس القوى الجسدية فحسب ، بل أيضًا جميع قـوى النفس المعطاة للحياة الأرضية. فإذا سعينا، بعـون الله، إلى تنمية قـوى الـروح الخالـدة داخـل أنفسـنا، فسيكون ذلك بالتأكيد على حساب القوى الحيوانية، بل وسيتناقض مع جميع نواميس ومتطلبات طبيعتنا الحيوانية. وحدها الروح التي تقويها نعمة الله يمكنها أن ترتفع فوق هذه الطبيعة.

يجذبنا الناموس الطبيعي إلى الأفعال المتأصلة فيه، بغض النظر عما إذا كانت مقدسة أم خاطئة، حتى دون طلب موافقتنا. هذا الانجذاب لناموس طبيعتنا الحيوانية يُسمى طبيعيًا في طبيعتنا البشرية الساقطة. إنه أمر غير طبيعي بالنسبة لأرواحنا، لأنه يتسلط عليها ويقمعها ويقتلها.

إذ نعيش وفقًا لنواميس طبيعتنا الساقطة، نكون ما زلنا نشعر أحيانًا بشوق غير قابل للتفسير، وبعدم الرضا، وبالرغبة في شيء أسمى، والتحرر من كل ما يشكل حياتنا الأرضية. إنَّ هذا الشوق وهذه الرغبة يكشفان عن حاجة أرواحنا. إذا أخفضنا هذا الصوت في أنفسنا، فسيصمت تماماً أو يتحول إلى شعور باليأس. ولكنْ لماذا هـو ضـعيف جـداً؟ لأننا بسبب سـقوطنا لا نسـتطيع القيام بما هـو صـالح بقوتنا الذاتية، وحـدها نعمـة الله تسـتطيع أن تعمـل الصـلاح فينا عندما نعطي مجـالاً للنعمـة بتواضـعنا وإيماننا. ولهـذا تُسـمى الحياة الروحية "فوق الطبيعة". علينا أن نعمل على أنفسنا، وعلينا أن نرى ما يفوق المصالح الأرضية، وعلينا أن نؤمن أن كل شيء مقدس يتم الحصول عليه فقط بنعمة الله – ولهذا السبب علينا أن نتواضع.

طريق وصايا المسيح

بالرغم من أنَّه على جميع المسيحيين أن يتبعوا طريق وصايا المسيح، طريق التخلي عن أهوائنا الخاطئة، إلا أن هناك اختلافًا في الأعمـال الروحية وطـرق الحياة، إذا جـاز التعبير. يمكن لكلٍّ من الحـبيس والمبتدئ والعلماني أن يتوصَّلوا إلى نكران إرادتهم، لكنهم يحققون هذا الهدف بطرق مختلفة. الأول يرى مشيئة الله التي يتخلى أمامها عن إرادته في ضوء كلمة الله؛ والثاني – بإرادة أبيه الروحي. والثالث – في ظروف الحياة. نقاوة القلب ممكنة لثلاثتهم، لكن الأول يسـعى إليهـا بالصـلاة غـير المنقطعـة، والثاني بعمـل الطاعـة والاعتراف بالأفكار، والثالث بالإنجاز الصادق لعمله وواجباته العائلية. كلهم يحققون نفس الهدف ولكنْ بطرق مختلفة.

ينطبق الأمر نفسه على جميع شؤون الحياة. لقد ذكرت الخصائص الرئيسية، وأشرت إليها بإيجاز، لكني أريد أن أقول لك شيئًا واحدًا فقط: أخشى أنك قد تنحرف كثيرًا في الزهد. الرهبنة ليست أكثر من شكل خارجي للحياة، ومهما كانت صالحة، فلا يجب أن تكون هي الغاية النهائية لبحثنا. اجتهد في الحصول على أفضل المواهب، يقول الرسول (راجع ١ كور ١٢: ٣١). كل الكنز الروحي مخبوء في وصايا المسيح: أن نحب الله قبل كل شيء، وقريبنا مثل أنفسـنا. كم نحتاج إلى إنكار أهوائنا لكي نحب الله أكـثر من كل الأرضـيات – أكـثر من أنفسـنا! كم علينا أن نجاهد من أجل أنفسنا لكي نحب قريبنا كنفسنا! تحوي هاتان الوصيتان على كل طهارة النفس وكل قداستها.

كرامة الإنسان ونبله

إن كرامة الإنسان ونبله لا تكمن في الامتيازات التي ورثها عن أسلافه بقدر ما تكمن في تلك الصفات الطيبة للنفس، والتي اكتسبها من خلال العمل على نفسه. هكذا يُقدِّر الرب كل الصلاح الذي فينا. هكذا يُقدِّرنا العقلاء. وعلى الإنسان نفسه أن يقدِّر كل ما أعطاه إياه الرب.

Source: St. Arsenia of Ust-Medvedits. The Way of Christ’s Commandments. Spiritual Instructions of St. Arsenia of Ust-Medvedits. Part 3. Translation by Jesse Dominick. Azbyka.ru. 10/27/2023. https://orthochristian.com/156944.html

الكهنوت بحسب القديس سمعان المترجم – ٤

إعداد أسرة التراث الأرثوذكسي

المخلّص كمفتاح للكهنوت

يشدد القديس سمعان على ما يمكن أن يسمّى مفتاح الكهنوت. هذا المفتاح هو يسوع. يسوع هو الإله الحقيقي، الكلمة (Λόγος) من نوس، الكائن دائماً والذي لم تكن له بداية، والذي منه كان كل شيء، الحكمة والقوة والكلمة، الذي به يوجد كل شيء. إنه سيد كل القوات، غير المادية، وغير المنظورة، الفائقة الوصف، لا يمكن فهمها، لا يمكن تصورها، المتعذر وصفها، لا يمكن المساس بها، والخالدة. ومع ذلك، فإنه هو نفسه قد صار إنساناً لجميع البشر، منظوراً، موصوفاً، سالكاً بيننا، قابلاً للموت، فقيراً، بلا مواطنة، بلا كرامة، مباعاً من نفسه، مُداناً، مشتوماً، مستهزئاً به، مُعذباً، مصلوباً. لقد تحمل كل هذا من أجل الإنسانية.

يتساءل القديس سمعان: ما الذي يمكن أن يكون أكثر قداسة؟ ما هي العلامة الأخرى للخير الأعظم التي يمكن أن توجد؟ ما الذي يمكن أن يكشف بشكل أوضح عن عمق الرحمة الإلهية؟ ما هو الشيء الآخر الذي يمكن أن يظهِر بشكل أفضل مجد تواضع الله؟ لا شيء يمكن أن يفوق حقيقة أن الخالق قد صار مخلوقاً، وأن الصانع صار كائناً مصنوعاً، يتألم على أيدي المخلوقات من أجل هذه المخلوقات؛ أي أن السيد يتحمل الآلام من أيدي العبيد من أجل هؤلاء العبيد، الذين هم غير مخلصين، وقفوا إلى جانب العدو، لم يعرفوا الخالق، لم يفكروا في معرفته، لم يبحثوا عنه، ولم يسعوا إليه، بل هاجموه، نكّلوا به، جدّفوا عليه، وأخيراً أسلموه للموت. يتجلى صلاحه المذهل في ما أنجزه لهم. لقد بذل نفسه من أجلهم، تألم ومات وقام، ورفعهم جميعاً معه، وصعد إلى السماء ومجّدهم معه، ووحدّهم به كأعضاء له، راغباً في أن يظل معهم إلى الأبد غير منفصلين.

واجب الكاهن هو خدمة الرب

وفي ضوء ما قدمه الرب للبشرية يطرح القديس سمعان السؤال: ماذا يقدم الكهنة في المقابل؟ إن ديونهم له على إحساناته العظيمة لا تحصى. لذا في المقابل يجب أن يقدموا أنفسهم له بالكامل؛ يقفوا بجانبه قائلين قوله وفاعلين أعمال مذلته؛ أن يتواضعوا أمام مَن تواضع من أجلهم. يجب أن يرتعدوا من فكرة مَن هو الرب الذي هم واقفون أمامه؛ خاصة عند التفكير في أنه قائم دائماً في وسطهم بشكل غير مرئي من خلال أسرار الجسد الإلهي والدم المقدس التي تُظهر آلامه، أي أنه قُتل وسُمِّر وسفك دمه واحتمل الموت. يجب أن يرتعدوا من اقترابهم منه ورؤيته مقسماً أو موزعاً، مأكولاً، مشروباً دمه، يتقاسمه الآخرون بالنعمة بعد أن حمله الكهنة.

وهذا أيضاً ما يجعل الشاروبيم والسيرافيم يرتعدون. كل القوى السماوية والملائكية تتقهقر عندما يرون ما يحدث، ويقفون أمامه بخوف ورعدة، مدركين مخلوقيتهم وحدود طبيعتهم، وبالتالي يمجدون بدهشة مطلقة صلاح الله الذي لا يقاس. عندما يقف الكهنة أمام المسيح، فإنهم يُحاطون بأجواق الملائكة الذين يحيطون بالمذبح ويرتعدون خوفاً وهم يحاولون إدراك السر. إنهم لا يقفون هناك خاملين، لأنهم يتقبّلون شعاع النور نفسه، من مصدر النور، الذي يخرِج منه سرياً دفء وجودهم الناري، الذي يتّقد بهذا النور. إن هذا النور هو الذي يعطي أيضاً الحياة والحكمة والمعرفة.

وإذ تقترب القوات غير المتجسّدة من أسرار المسيح، وهي المُتحرِّرة من كل هوى، كما يقول القديس سمعان، ينبغي للكهنة الذين هم من تراب وطين أن يقتربوا باستعداد أعظم بكثير، مملوئين رهبة وشوقاً للخدمة بأسمى الاعمال. وبما أن سبب كل هذا العمل الرائع هو محبة الله وحسب، فيجب على الكهنة أيضاً أن يقتربوا منه بمحبة من كل القلب. عليهم أولاً أن يحبوا الرب الذي يحبهم جميعاً والبشرية جمعاء، بكل قوة نفوسهم. وعليهم أن يقتربوا بصلاة حارة طالبين معونة الله حتى يتمكنوا من الخدمة في عمل لا يمكن أن يقوم به إلا هو. وعليهم أن يجتهدوا في الاتحاد معه اتحاداً كاملاً، لأنه كما قال: "بدوني لا يقدرون أن يفعلوا شيئاً" (يوحنا ١٥: ٥). وعليهم أيضاً أن يقتربوا بتواضع، آخذين في الاعتبار أن "من وضع نفسه ارتفع" (لوقا ١٤: ١١)، مقتدين بالسيد الذي اعتمد الفقر البشري ورفض تمسك الشرير العنيد بالتشامخ. إذا كان السيد قد بذل نفسه من أجل الجميع وصار كل شيء للكل، فعلى الكهنة على الأقل أن يقدموا ذواتهم له، حتى يتمكنوا من المشاركة باستحقاق ويتمتعوا حقاً بخيراته الإلهية.

على الكهنة أن يرغبوا في خدمة سر المسيح كل يوم إن أمكن، آخذين في الاعتبار مدى استحسان الرب نفسه الذي قال: "شَهْوَةً اشْتَهَيْتُ أَنْ آكُلَ هذَا الْفِصْحَ مَعَكُمْ" (لوقا ١٥:٢٢). في الواقع، أمَرَ الرب أن يُقام هذا السر باستمرار أو دون انقطاع لذكرِه. لقد قال: "اِصْنَعُوا هذَا لذكري" (ποιείτε)، وليس "اصنعوا هذا مرة واحدة فقط لذكري"(ποιήσατε) (لوقا ١٩:٢٢). يتساءل القديس سمعان: ما هو العمل الذي يمكن القيام به وهو أعظم من هذا العمل الذي يحيي ذكرَ المسيح وآلامه من أجلنا وتضحيته الدائمة عنّا؟ قال "هذا هو جسدي الذي بذل لأجلكم، أي الذي يُكسر دائماً. وهذا هو دمي الذي يُهرَق دائماً (ἐκχυνόμενον) من أجلكم" (لوقا ٣٠:٢٢)، وليس "الذي أُهرق مرة واحدة" (ἐκχυθέν)، بل الذي يُهرَق دائماً. إذاً لا يوجد عمل آخر أنفع لنا وأكثر إرضاءً لله من هذه الذبيحة، لأن هذا العمل هو عمل الله ويستتبع تجديد البشرية واستعادة شركة الله مع البشر، كما أوضح المسيح نفسه في قوله: "ليكونوا واحداً كما نحن واحد" (يوحنا ٢٢:١٧). الرب نفسه أعلن أن البشر يصبحون واحداً معه فعلياً من خلال هذا العمل بقوله: "مَن يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه" (يوحنا ٥٤:٦).

الدموع: شفاء الإنسان

الأرشمندريت زخريا زخرو من دير آسكس
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

أحد أكثر الطرق أماناً لتحقيق الشخصية هو طريق الدموع. بالدموع تتحد كل قوى النفس لنرتفع إلى مستوى محبة الله والقريب كما تقتضي وصايا الرب. هناك تمامية يقينية في الشخص الذي يبكي أمام الله إذ يكون القلب والعقل متحدين. بقوة النعمة يُصلَب العقل وينزل إلى القلب. يُصلَب العقل في محاولته العيش حسب التعاليم الإنجيلية.

في كل مرة نبكي أمام الله، يبدو الأمر كما لو أنه يحمل ريشة يعمل بها مسحاً على النفس، بحيث أنها بعد فترة، من خلال هذه المسح المستمر، تظهر صورة المسيح على القلب. كما وُلِدنا ثانيةً بمياه المعمودية، كذلك نتجدد بتدفق الدموع في النوح الروحي. وبالمثل، كما ننال ختم الروح القدس بزيت الميرون المقدس، كذلك ننال بمسحة الدموع نعمة الاستنارة.

في البشارة، حُبل بالرب يسوع المسيح في صورة إنسان بالروح القدس من مريم العذراء. لقد صار إنساناً ليظهِر لنا الله في الجسد. وبالمثل، من خلال الدموع، نتصور تدريجياً الحياة الإلهية في داخلنا لإظهار ما رسمه الله لنا منذ الأزل، أي أن نصير صورة ابنه الكاملة ومثاله. يتصوّر الروح القدس فينا هذه الصورة التي تُختَم بالبكاء فتعرفنا الملائكة الذين سيجمعوننا جميعاً في ملكوته في اليوم الأخير[١].

من أسماء الرب يسوع المسيح عمانوئيل أي "الله معنا". عندما أخذ الكلمة جسداً، صار محسوساً من أجلنا، مع كونه روحاً. يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي: "Ο Λόγος παχύνεται" أي حرفياً "الكلمة أسمَن"[٢] أي كلمة الله "صار ذا جسد" حتى نتمكن من لمسه ورؤيته وسماعه. لقد "سُمن" بطريقة جسدية حتى يصبح ملموساً بالنسبة لنا. ونحن أيضاً، بالمثابرة على عَمَل الدموع، والنوح الروحي، نتسمّن ولكن في نفوسنا. أي أننا نبدأ في قبول آثار النعمة، فتتسمّن نفوسنا، وتغتني، وتكتسب الامتلاء، وتصبح مرئية لله ولملائكته القديسين. يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد: "كما أن الطعام والشراب ضروريان للجسد، كذلك الدموع للنفس. وإذا لم نبكِ كثيراً، فإننا نجوّع أنفسنا ونهلكها من الجوع"[٣].

هذا هو في الأساس عمل التوبة: أن يسمن كل إنسان نفسه باستمرار بالندم والدموع، حتى يجمع آثار حضور الله في قلبه. ومع الوقت تنمو هذه الآثار إلى ملء حياة جديدة فيه، تكون نوراً لعقله وقوة لقلبه، حتى يرقى إلى العلاء وينافس الملائكة. في هذه الحالة يصبح أقنوماً حقيقياً. يقتني حالة الله. لقد مُسِح بالروح القدس، ونال نفس السرور في قلبه مثل الله: أن الجميع يخلصون. ثم يبدأ "العمل الحقيقي" للإنسان الحقيقي الذي يخرج إلى عمله حتى المساء[٤]، وهو تقديم كل مخلوق إلى الله في صلاة شفاعته. إن إكليل التوبة هو كمال الصلاة الأقنومية، بلوغ الحالة التي فيها نقف أمام الله، فلا يرى فينا مجرد اسم بسيط، بل العالم كله في قلوبنا مقدماً له.

التسمين يعني الشبع. للأقنوم ملء يشمل كل ما هو إلهي وكل ما هو بشري. يتكوّن أقنوم المسيح ملء الطبيعة البشرية والإلهية وأقنوم الإنسان، عندما يصير كاملاً، يكون له أيضاً ملء اللاهوت بالنعمة. باتحاده بالقوى الإلهية، يتّسع قلب الإنسان ليحتضن البشرية جمعاء ويقدمها أمام الله. للنعمة ملءٌ في الأقنوم البشري الكامل، ومن خلال تلك النعمة يصبح هذا الإنسان وسيطاً لكل العالم.

إن الذين مُسحوا بنعمة الصلاة من أجل العالم، لهم مسحة لا يراها الناس، بل تُميزها الملائكة. فالله يعرف خاصته، كما أن ملائكته قادرون على تمييز آثار صورة المسيح على وجه المؤمنين وفي قلوبهم. حتى في هذه الحياة، هذه الظاهرة ليست خارج إدراكنا بالكامل؛ قد نكون قادرين على فهم بعض الشفافية لدى الأشخاص الذين يبكون، والتي تظهر أحياناً في وجوههم. عندما يبكي الإنسان في الصلاة قد تصبح بشرته ناعمة ولامعة، فيشعر بملمس المسحة في الجلد؛ بشكل رئيسي على الجبهة ولكنه قد ينتشر أيضاً إلى كامل جسم الإنسان. قال الشيخ صفروني إنه شعر بهذه المسحة في جميع أنحاء جسده وأنه شعر أيضاً أنها ستحرق أي شيء غريب عن الله.

تحتوي إحدى صور القديس بولس على كل قوة سر المسحة هذا، عندما يقول: "فَإِنَّنَا فِي هذِهِ أَيْضاً نَئِنُّ مُشْتَاقِينَ إِلَى أَنْ نَلْبَسَ فَوْقَهَا مَسْكَنَنَا الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ... لِكَيْ يُبْتَلَعَ الْمَائِتُ مِنَ الْحَيَاةِ" [٥]. التوبة تعني في الواقع أن نقتني هذه الرغبة الصادقة وأن نئن باستمرار لتقبّل النمو من الله، الذي هو المسكن السماوي، حتى شيئاً فشيئاً يبتلع عدمُ الموت الموتَ. من ثمّ يُعطى لنا استشعار عدم فساد جسدنا، علامة على القيامة المستقبلية، كما كان الحال في حياة النبي أيوب، عندما تنبأ " وَبَعْدَ أَنْ يُفْنَى جِلْدِي هذَا، وَبِدُونِ جَسَدِي أَرَى اللهَ" [٦]. إذا اختبرنا تعزية الدموع غير القابلة للفساد، ومن خلالها نتلقى تأكيداً على بقائنا، فعندئذ سنكون قادرين على رؤية جميع إخوتنا على أنهم مقدرون لعدم الموت أيضاً، ونتيجة لذلك نحبّ حتى أعداءنا. من ثمّ نكون قادرين على التحدث إلى الرب بلغته، لغة الدموع، من أجلنا ومن أجل جميع الناس، ومن خلالها يتنازل إلينا ويشفينا.

أوصى الشيخ صفروني رهبانه بالدموع منذ أول أسبوع لهم في الدير. كان يقول لهم: "إذا أردتم أن تستأصلوا أهواء النفس، تعلموا البكاء". ولتعزيز تعليمه، كان يوصي دائماً بتعليم القديس سمعان اللاهوتي الحديث. يتمتع لاهوت القديس سمعان الصوفي بعنصر مواهبي قوي إذ يضع كل ثقته في يسوع القدير. فهو يثق في كل الكلمات التي يضعها في فمه. ثقته كبيرة بأن الرب سيفتح فمه بالرغبة في التوبة. في هذا هو يشبه القديس بولس الذي يقول: " لَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا" [٨]. ويتمتع القديس سمعان بنفس الثقة الرسولية بأن مَن بدأ فينا عملاً صالحاً، سيبقى أميناً ليكمله. ولهذا السبب هو يقترح في العظة التعليمية الثلاثين صلاة محددة قبل البكاء ثم يضيف: "وأية كلمات أخرى يضعها الله في فمك في تلك اللحظة" [٨]. بمعنى آخر، هو يترك مساحة للروح، مشجعاً الصلاة الحرّة من القلب.

إن لغة الدموع هي لغة الروح القدس في كل إنسان. تتحدث هذه اللغة في قلوبنا بشكل مختلف وفي أوقات مختلفة. إننا نقرأ نفس المقاطع من الكتاب المقدس عدة مرات، ومع ذلك يأتي يوم يتردد فيه صدى الكلمة فينا كما ترددت في المرة الأولى في قلب مَن نطقها، لتفتح لنا فحوى جديداً تماماً. أتذكر اليوم الذي عثرت فيه على كلمة أيوب هذه، التي أخصص لها هذا الكتاب: "مَا هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَعْتَبِرَهُ، وَحَتَّى تَضَعَ عَلَيْهِ قَلْبَكَ؟ وَتَتَعَهَّدَهُ كُلَّ صَبَاحٍ، وَكُلَّ لَحْظَةٍ تَمْتَحِنُهُ؟... لِمَاذَا جَعَلْتَنِي عَاثُوراً لِنَفْسِكَ"

لقد فتحت الكتاب المقدس بشكل عشوائي ووجدت هذه الآية التي يبدو أنها تحتوي على كل لاهوت الشيخ صفروني. تستخدم كلمة غير عادية κατεντευκτης، غير معروفة في اليونانية الحديثة، ويمكن تقديمها ك"هدف" أو "مفتري". في اليونانية السبعينية تعني من يبدأ محاججة ليس لأسباب أنانية بل من أجل فهم السر الإلهي. من يصل إلى حالة كونه κατεντευκτης، يصبح أيضاً هدفاً لاستفقادات سرية إلهية، هي مصدر كل الدموع.

يقول القديس يعقوب: " اقْبَلُوا بِوَدَاعَةٍ الْكَلِمَةَ الْمَغْرُوسَةَ الْقَادِرَةَ أَنْ تُخَلِّصَ نُفُوسَكُمْ"[٩]. هذه الكلمة المغروسة هي الكلمة الفطرية، تلك العطية الأولية التي أعطاها الله للإنسان ليخلقه على صورته ومثاله،

لتمكينه من تلقي وحيِه. المبدأ نفسه تم التعبير عنه في الرسالة إلى أهل كولوسي بأنه " خِتَان غَيْر مَصْنُوعٍ بِيَدٍ "[١٠]. وهنا يقول القديس بولس بشكل مجازي أننا مختونون، أي أن القلب مجروح، لا بطريقة مادية أو جسدية، بل بختان المسيح، أي بكلمته، حسب وصايا الإنجيل. عندما يُجرح القلب بمبادئ الإنجيل، ويُختتن به، ينسحق ويتذكر دائماً ذاك الذي جرحه. هذه هي التوبة – أن نحمل ختان المسيح هذا على الدوام.

علينا أن نحتمل هذا الجرح في القلب الذي يتكشّف لنا بالدموع. وبدونه نصبح باردين ونصبح متكيفين بسهولة مع نماذج هذا العالم، حتى أننا سنصل إلى حالة تجعلنا نريد أن نجعل محبة هذا العالم متوافقة مع محبة الله. نحن بحاجة إلى تعزية الله لتكون فينا أقوى من قوة هذا العالم. نحن بحاجة إلى نار أقوى لإطفاء نار الأهواء. لذلك علينا أن نحتمل هذا الجرح الذي يذكرنا دائماً بشيء أبعد من ذلك بكثير، كامل ومقدس. إذا اقتنينا في داخلنا هذا التذكير، نكون قادرين على تمييز "إرادة الله الصالحة والمقبولة والكاملة". ومن الأهمية بمكان بالنسبة لنا أن ندرك ونتبع آثار إرادة الله، إذ بعد ذلك نجد الحياة: "في إرادتك حياة"[١٢].

تبدأ الدموع بالتدفق عندما نسلم أنفسنا لإرادة الله ونبدأ في فهم عنايته. عندما نعتمد كلياً على الله ونضع كل ثقتنا فيه، فإن كل قوى روحنا تتحد ونصبح قادرين على التوجه بالكامل إلى وجه المسيح. إن فائدة الدموع العظيمة هي أنها تسمح لنا بتقديم أنفسنا إلى الله بكل كياننا. إنها العلامة، المسحة، التي تجعلنا مقبولين أمامه.

في المراحل الأولى من تعلمنا النوح، تكون دموعنا مريرة لنا بسبب حالتنا البائسة. من خلال هذه الدموع الحارقة نبدأ بكراهية كل ما يقاوم نعمة الله فينا ويمنع الروح القدس من أن يسكن فينا. إن تواضع البكاء في الصلاة يغسل رؤيتنا الروحية، وتنفتح عيننا الداخلية على إدراك العالم الروحي. تذوب القشور التي على بصرنا.

مع الوقت، تصبح الدموع أكثر فرحاً، ومفعَمة بالعطش إلى اتحاد أكثر كمالاً مع إله خلاصنا. كلما زادت الدموع غزارةً، كلما عظم عمل النعمة المصاحبة لها، يصبح الاستسلام لعمل التوبة أسهل. في البداية يكون الأمر مؤلماً، ولكن، كما مع كل صلاة، نستمر في المحاولة حتى يأتي إلينا الوحي الذي بمجرد أن يُمنح لنا لا نريد أن نتخلى عنه. وفي النهاية، تمتلئ دموعنا بالامتنان لفوائد صلاح الله التي لا تحصى والتي لم نكن قادرين على رؤيتها من قبل.

تماماً كما ساهمت صرخة المسيح القوية ودموعه الطوعية في الجثسمانية في خلاصنا، كذلك فإن الطريقة التي نجعل بها هذا الخلاص خلاصنا هي اتباع نفس الطريق. إذا كنا حقاً تلاميذ للصليب، فسنكون أيضاً عاملي دموع، لأن الرب قال: "طوبى للحزانى". إن الحزن الروحي هو نشاط محيٍ لروح الإنسان. حَامِلِينَ فِي الْجَسَدِ كُلَّ حِينٍ إِمَاتَةَ الرَّبِّ يَسُوعَ، لِكَيْ تُظْهَرَ حَيَاةُ يَسُوعَ أَيْضاً فِي جَسَدِنَا" [١٤]. يتأسف النبي يوئيل أن "بني البشر يخزون"[١٥] نحن بحاجة لأن نتوب لأننا فضّلنا الفرح الكاذب على الفرح الروحي. بدلاً من السعادة الحقيقية، سعينا وراء مسرات هذا العالم الزائلة. إن الحزن الروحي يفصلنا عن الملذات الفاسدة التي تخزي فرح الله الحقيقي. "طوبى للباكين فإنهم يضحكون"[١٦] هذا الضحك الروحي هو ضحك منتصر، علامة على أن النعمة بدأت تتغلب على الموت فينا.

إن الفرح المبارك الناتج عن دموع الندم يُترجم في اليونانية بكلمة κατάνυξις، والتي تُترجم عادةً إلى الإنكليزية وخز الضمير. ترجم الشيخ صوفروني هذا المصطلح على أنه "amour triste" أي "محبة حزينة". يسميها آباء الكنيسة χαρμονύπη، أي الفرح والحزن في نفس الوقت. يقول القديس بولس إنه كان في كل حين "يبكي مع الباكين ويفرح مع الفرحين"[١٧]. لقد كان قادراً على القيام بالأمرين معاً في وقت واحد، لأنه كتلميذ للصليب، كان أيضاً تلميذاً لغبطة حياته المُقامة. في التوبة عنصر فرح قوي بسبب حضور الروح القدس الذي يعزّي النفس: "بالصليب قد أتى الفرح لكل العالم" [١٨].

في المزمور ١١٩ الرائع، الذي يصف شوق النفس إلى التحرر من هذه الحياة لتكون مع الله إلى الأبد، مكتوب: "أنهار مياه تجري من عينيّ" [١٩]. ليست دمعة وحسب بل أنهار من الدموع! لا يمكننا أبداً أن نبلغ ما يكفي من الندم؛ لا يمكننا أبداً اقتناء ما يكفي من الدموع؛ ولا حتى ذلك النوع من البكاء الذي يأتي من أعماق قلوبنا ويهز كياننا بالكامل حتى النخاع. مثل هذا البكاء يغيّر حياتنا، ومثل هذه اللحظات تصبح أساس وجودنا. على المدى الطويل، عندما نعود إلى هذه اللحظات، فإنها تثبت أنها سند لنا، لأننا نعلم أن "عِنْدَ الْمَسَاءِ يَبِيتُ الْبُكَاءُ، وَفِي الصَّبَاحِ تَرَنُّمٌ"[٢٠].

في العهد الجديد، القديس بطرس هو أفضل معلم للدموع. لقد ارتكب أعظم خطيئة على الإطلاق: كونه تلميذ الرب الأول، أنكره ثلاث مرات، أي أنه فقد كل نعمة المعمودية. لكن الرب توقع أنه سيجرَّب وصلى من أجله. ولما أدرك بطرس عمق سقوطه، خرج وبكى بكاءً مراً [٢١]. وفي يوم الجمعة العظيم نسمع هذه الآيات التي تعبّر عن صرخته إلى الرب: "لاَ تَسْكُتْ عَنْ دُمُوعِي. لأَنِّي أَنَا غَرِيبٌ عِنْدَكَ. نَزِيلٌ مِثْلُ جَمِيعِ آبَائِي" [٢٢]. وبدموعه المرّة، شُفي بطرس من خطيئته، واستُعاد في غضون أيام إلى قيادة الرسل. يمكننا أن نرى هذا من كلام الملاك لحاملات الطيب: "اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس: إن الرب يسبقكم إلى الجليل" [٢٣].

إن للمرأة التي من المدينة والتي مسحت الرب بالمر ذكر أبدي أمام الله بسبب دموعها وكثرة محبتها. إن الدموع هي علامة المحبة؛ لا يمكننا أن نبكي إن لم نكن نملك الرغبة الحقيقية والمحبة الحقيقية. لا يمكننا أن نبكي إلا إذا كان لدينا شيء واحد في أذهاننا وفي قلوبنا. إذا كنا مزدوجي التفكير فلا يمكننا أن نبكي. يأتي البكاء مع فكرة عدم استحقاقنا المطلق وفقرنا الروحي. "طوبى للفقراء بالروح" يتبعها مباشرة "طوبى للحزانى" [٢٤]. علينا أن نتذكر دائماً أننا فقراء وعدم كامل، أن نكون مستعدين دائماً لإلقاء اللوم على أنفسنا، وإدانة أنفسنا ولوم ذواتنا. يقول القديس غريغوريوس بالاماس إن هذا اللوم للذات هو الخمر الحقيقي الذي يفرح النفس، كما تنتج الندامة دموعاً حارّة [٢٥]. إنه ينير النفس ويقطع إرادة العدو، ويجعلنا نتبع إرادة الله فقط. لذلك لا بد لنا من الانسحاق، لأن الانسحاق هو الذي يبهج النفس بالخمر الحقيقي الذي يقوي الروح.

لما رأى إبراهيم الله قال: "أنا أرض وتراب"! علينا أن نحفظ من يوم إلى يوم هذا الانكسار الذي هي نور لروحنا، والذي هو بداية المحبة الحقيقية. إحدى طرق فهم هذا العلم العظيم هي من خلال الكلمات التي قالها الرب لأبينا القديس سلوان: "احفظ عقلك في الجحيم ولا تيأس". إن حياتنا مليئة بالجحيم؛ نحن بسنا ثابتين باستمرار في حضرة الله؛ ولا نحن نُقاد بروحه طوال الوقت؛ نحن لا نستنير باستمرار في أذهاننا ونتحول في قلوبنا؛ في أغلب الأحيان نحن نتصارع مع الخطيئة؛ نحن نصارع غفلتنا عن الله، ضد اليأس. عندما يكون الله غائباً في الواقع عن حياتنا، فإننا نكون في الجحيم. الجحيم هو مكان غياب الله. إحدى طرق تطبيق كلمات الرب للقديس سلوان هي أن نقول: "نعم يا رب، أنا أستحق هذا الأسى، أستحق أن أكون بعيداً جداً عن خلاصك، أستحق أن يكون بيت نفسي بكليته جحيماً". ولكنك أنت صالح، خلصني بدون قيد وبلا سبب، أنا غير المستحق.

اعتاد الشيخ صوفروني أن يقول إن أي شخص يعيش بهذه الطريقة، بالندم والدموع، لا يجروء حتى على النظر إلى وجه طفل. هذه هي روح الذين يتغذّون من دسم الله، طريقتهم. ويل لنا إذا جعلنا برَّنا يقف أمام الله، معتمدين على أعمالنا الخارجية أو مواهبنا الطبيعية. المحبة الإلهية تكون حيث يوجد الندم على الخطايا والشكر لله. علينا أن نحافظ على روح الانسحاق هذه، لينزل الروح القدس في النفس، ويحدث زلزالاً، وينفض قشور اليأس التي تراكمت فينا، ويجددنا كما تجدّد الرسل في العنصرة. إن الذين ينالون مسحة الروح القدس من خلال الانسحاق والدموع، يبدؤون بمحبة الله بطريقة شرسة جداً، حتى أنهم يرون أنفسهم وكأنهم لم

يبدؤوا بعد في طريق المحبة الإلهية. لهذا السبب يستطيعون أن يقولوا مثل القديس بولس: "المسيح جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أنا أولهم"[٢٨].

في الفردوس، عندما كان آدم لا يزال ثابتاً في حضرة الله، كان ينظر إلى حواء فيراها لحماً من لحمه وعظماً من عظامه – مثل حياته. ولكن، عندما عصى إرادة الله وطلبه الرب، قال: "المرأة التي أعطيتني هي غوتني وأهلكتني". لقد عامل حواء كغريبة عن نفسه، كدخيلة. فإذا خنّا هدفنا الأصلي كما فعل آدم، لن نتمكن بعد ذلك من تقديم المحبة الأخوية لإخوتنا. سوف ننظر إليهم كغرباء، كتهديد لحياتنا ودينهم. منذ سقوط جدّينا، أصبح الموقف الوحيد المقبول لدى الله هو اعتبار أنفسنا غير مستحقين لله وغير مستحقين لإخوتنا. إذا حافظنا على هذا السلوك، فلن يأتي أي حكم أو انتقاد أو كلمة سلبية على شفاهنا ضد إخوتنا، لأن القوة التي جلبتها مسحة الله من خلال الندم والدموع ستقطع رأسها في حلوقنا قبل أن ترتفع إلى لساننا.

هذا ما نحن مدعوون إليه كأتباع المسيح. في الواقع، في كل مرة يهبنا الرب أن نبكي على خطايانا، تغمرنا لمسة من الأبدية، لمسة من النعمة التي تمسحنا وتجعلنا نتصرف بشكل مختلف مع إخوتنا. إن لم نبكِ كل يوم ولم نجعل ذلك من غاياتنا الرئيسية، فلن نرى أن أخانا هو حياتنا، كما يحثنا القديس سلوان، وسوف نستمر في عض بعضنا البعض حتى "يفني بعضنا بعضاً" [٣٠].

إن لوم أنفسنا وحمل خطئنا وعار خطيئتنا هو العلامة على أن محبة الله تعمل فينا. وهذه المحبة تصبح نوراً للنفس، فلا يعود الإنسان يقارن نفسه بالبشر الآخرين، بل بالمقاييس الإلهية، أي بصورة ربنا يسوع المسيح. عندئذ يستطيع أن يدرك أن أعظم وصية في العهد الجديد هي في قول الرب: "كَذلِكَ أَنْتُمْ أَيْضاً، مَتَى فَعَلْتُمْ كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَقُولُوا: إِنَّنَا عَبِيدٌ بَطَّالُونَ، لأَنَّنَا إِنَّمَا عَمِلْنَا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا" [٣١].

من بين جميع أنبياء العهد القديم، أعظم معلم للدموع هو النبي أيوب، إذ يقول هو نفسه: "تحولت قيثارتي إلى النوح، وأرغني إلى صوت الباكين" [٣٢]. عندما قُتل أولاده وهلك ماله وأصيب بالأمراض، قالت له امرأته: "العن الله ومت" [٣٣] لقد كانت تجربه عالمة أنه إذا جدف على الله تنتهي كل مصائبه. لكن أيوب يعلم أنه إذا سبّ الله فلن يكون له رجاء في الأبدية. لذا بقي مستسلماً لإرادة الله، حتى وهو يتألم من الدموع، قائلاً: "كُنْتُ مُسْتَرِيحاً فَزَعْزَعَنِي، وَأَمْسَكَ بِقَفَايَ فَحَطَّمَنِي، وَنَصَبَنِي لَهُ غَرَضاً... اِحْمَرَّ وَجْهِي مِنَ الْبُكَاءِ، وَعَلَى هُدُبِي ظِلُّ الْمَوْتِ... لِكَيْ يُحَاكِمَ الإِنْسَانَ عِنْدَ اللهِ كَابْنِ آدَمَ لَدَى صَاحِبِهِ" [٣٤].

لا يدرك أيوب أنه هو نفسه يتصرف بطريقة ترمز إلى المسيح المحامي عن البشرية الذي يسعى إليه. وفي اختباره لله، يُظهِر إحدى السمات الرئيسية للشخصية، حيث يعمل كحكم للبشرية جمعاء أمام الله ويتوسل إلى تبرير المعاناة البشرية. في كتابه "في الصلاة"، يُدرج الشيخ صوفروني رثاء أيوب كما لو كانت صلاته الخاصة. وفيه يلعن أيوب نفسه ومعه البشر، فتكون صرخته كصرخة آدم المطرود من الجنة:

"ليبِد النهار الذي ولدتُ فيه والليل الذي قيل فيه: قد حُبل برجل... ليملكه الظلمة وظل الموت... ليرعبه سواد النهار." .. ها، لتكن تلك الليلة منفردة، ولا يأتي فيها صوت فرح. ليلعنها لاعنو النهار... ليبحث عن نور وليس له نور ولا هو يرى الفجر. لأنه لم يغلق أبواب بطن أمي ولم يستر الحزن عن عيني. لماذا لم أمت من الرحم؟ لماذا لم أسلم الروح عندما خرجت من البطن؟... لأنه كان ينبغي لي الآن أن أستلقي ساكناً وأكون هادئاً (في هدوء اللاوجود الواسع)... لماذا يُعطى النور لرجل طريقه (إلى "معرفة الله) مخفي، والذي سياجه الله؟ "[٣٥].

بعد أن توسل أيوب إلى الله، مصوراً الحالة البشرية على أنها ميؤوس منها، حصل على الجواب: قام كما من الجحيم، وأتيح له رؤية الرب وجهاً لوجه. وبعد أن اتهم الله، بسبب الدمار الذي أصابه، تأدّب بفم الله:

"فَأَجَابَ الرَّبُّ أَيُّوبَ مِنَ الْعَاصِفَةِ وَقَالَ: مَنْ هذَا الَّذِي يُظْلِمُ الْقَضَاءَ بِكَلاَمٍ بِلاَ مَعْرِفَةٍ؟ اُشْدُدِ الآنَ حَقْوَيْكَ كَرَجُل، فَإِنِّي أَسْأَلُكَ فَتُعَلِّمُنِي. أَيْنَ كُنْتَ حِينَ أَسَّسْتُ الأَرْضَ؟ أَخْبِرْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ فَهْمٌ. مَنْ وَضَعَ قِيَاسَهَا؟.. «هَلْ يُخَاصِمُ الْقَدِيرَ مُوَبِّخُهُ، أَمِ الْمُحَاجُّ اللهَ يُجَاوِبُهُ؟».. فَأَجَابَ أَيُّوبُ الرَّبَّ فَقَالَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ... بِسَمْعِ الأُذُنِ قَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ، وَالآنَ رَأَتْكَ عَيْنِي. لِذلِكَ أَرْفُضُ وَأَنْدَمُ فِي التُّرَابِ وَالرَّمَادِ" [٣٦].

في كل تجاربه، عرف أيوب أن هناك سبباً أعمق وراء عذابه، وصارع باستمرار لفهم دينونة الله. في النهاية، عندما زاره الله لكي يراه بأم عينيه، رثى نفسه وندم لأنه لم يتألم أكثر، وفقط عندما احتمل حتى النهاية، مُنح لقاءً كاملاً مع الإله الشخصي حتى يتحقق مبدأه الأقنومي. تكشف تجربة أيوب أقنوم الإنسان (المحبة حتى كراهية الذات)، كما تكشف حقيقة الصليب وكل الآلام التي عاناها المسيح، تكشف شخص المسيح (المحبة حتى النهاية). هذا هو حكم العالم. وكما يقول المسيح: "الآن دينونة العالم"[٣٧].

يكتب القديس سلوان أن النبي أيوب، بكل ما احتمل من الذل، أصبح شبيهاً بالمسيح: "عندما يدخل سلام المسيح إلى النفس، تفرح عندما تجلس مثل أيوب بين الرماد وترى الآخرين في المجد؛ عندها تفرح النفس بأنها أسوأ من أي شخص آخر. إن سر التواضع الشبيه بالمسيح هو سر عظيم، من المستحيل أن ينكشف. من المحبة، تتمنى النفس لكل إنسان خيراً أكثر مما تتمناه لنفسها، وتسعد عندما ترى الآخرين أكثر سعادة، وتحزن عندما تراهم يعانون" [٣٨].

لقد بلغ أيوب محبة المسيح، مثل القديس سلوان، من خلال المعاينة المباشرة لوجه الله. لقد صار مثل المسيح من خلال اتباع طريقه؛ بالنزول أولاً إلى الجحيم ثم الصعود إلى السماء. لقد عرف أيوب قوة الدموع. في مثل هذه المعاناة، كيف يمكن أن يبقى على قيد الحياة؟ نيكولاس، شقيق الشيخ صفروني، الذي مكث في معسكرات العمل القسري في سيبيريا لسنوات عديدة، سأله ابنه مرةً: "هل صليت هناك في المعسكرات؟" فابتسم وقال: "كان من المستحيل البقاء على قيد الحياة بدون الصلاة".

إن اتباع طريق أيوب والمحافظة على الحديث المستمر مع الله، حتى في غياب أي تعزية، يؤدي إلى تجديد النعمة والدخول الغني إلى ملكوته. بعد افتقاد الرب لأيوب، استعيد أيوب نفسه ووجدها، كما قال، مكرراً ما كان في شبابه "وَلَمَّا كَانَ رِضَا اللهِ عَلَى خَيْمَتِي، وَالْقَدِيرُ بَعْدُ مَعِي وَحَوْلِي غِلْمَانِي، إِذْ غَسَلْتُ خَطَوَاتِي بِاللَّبَنِ، وَالصَّخْرُ سَكَبَ لِي جَدَاوِلَ زَيْتٍ" [٣٩]. هذا هو غنى رحمة الله لقديسيه، التي يستطيع القديسون بعد ذلك نقلها للآخرين من خلال كلماتهم وحضورهم.

في المزامير، "خبز الدموع"[٤٠] يقوي القلب ليقف في حضرة الله. من خلال هبة الدموع، يتجرأ القلب على اتباع طريق المسيح وتنفيذ جميع الوصايا. هذه هي جرأة الصليب إن كنا تلاميذ الصليب. "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد". وبصليبه كشف لنا الطريق العجيب الذي يؤدي إلى السماء. ولكن بما أننا، مثل بطرس، لا نستطيع دائماً أن نحمل هذا الصليب، فليس لدينا وسيلة أخرى لنتبع هذا الطريق سوى الصلاة بالدموع. وليس هناك طريقة أخرى للشفاء إلا من خلال الدموع. إن طبيعة البكاء هي التي توحّد كل قوى النفس، وحينها فقط، في حالة شفائه، يستطيع الإنسان أن يتمم وصايا المحبة بكل قلبه.

Endnotes:

1. Rev. 9:4.
2. PG 36, 313B.
3. Saint Symeon the New Theologian, The Discourses, trans. C.J. de Catanzaro, (New York: Paulist Press, 1980), p. 314.
4. See Ps. 104:23.

5. Cf. 2 Cor. 5:2-4,
6. Job 19:26.
7. Rom. 8:26.
8. Saint Symeon the New Theologian, The Discourses, p. 322.
9. Jas. 1:21.
10. Col. 2:11.
11. Rom. 12:2.
12. Ps. 29:6 (LXX).
13. Matt. 5:4.

14, 2 Cor. 4:9-10.

15. Joel 1:12 (LXX)
16. Luke 6:21
17. Cf. Rom. 12:15

١٨. من ترانيم القيامة بعد الإنجيل في السحر.

19. Ps. 119:136
20. Ps. 30:5 (LXX).
21. Luke 22:62.
22. Ps. 39:12.
23. Cf. Mark 16:7.

24, Matt. 5:3.

25. Saint Gregory Palamas, 'To the Most Reverend Nun Xenia' in The Philokalia, vol. IV, p. 314.
26. Gen. 18:27.
27. See also Saint Symeon the New Theologian, The Discourses, pp. 151 and 254.
28. 1 Tim. 1:15
29. Saint Silouan, p. 371.
30. Gal. 5:15.
31. Cf. Luke 17:10.
32. Job 30:31.
33. Job 2:9.
34. Job 16:12, 16, 21.
35. Cf. Job 3. Edited in "On Prayer", pp. 126-127 and in "His Life Is Mine", pp. 46-47.
36. See Job 38-42. This passage is quoted in full in We Shall See Him, pp. 151-152, with additions.
37. John 12:31.
38. Saint Silouan, 305.
39. Job 29:5-6.
40. Ps. 80:5

Source: Archimandrite Zacharias Zacharou. "Tears: the Healing of the Person". In *Man, the Target of God*. Stavropegic Monastery of St. John the Baptist. 1st edition. 2015

القديس رافائيل هواويني في الرد على بابا روما

ماتيو نعمة
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

أصدر البابا لاون الثالث عشر، في عام ١٨٩٤، رسالة بابوية حول "الحفاظ على الطقوس الشرقية"، أي الاتحادين، وهم المجموعات التي تستخدم الطقوس الليتورجية الأرثوذكسية القديمة ولكنها تخضِع نفسها لبابا روما. في عام ١٨٩٨، نشر القديس رافائيل هواويني، الذي كان آنذاك أرشمندريتاً في نيويورك، رداً في مجلة دورية تسمى "الإيمان والعقل"، وأعيد طبعه لاحقاً باللغتين الروسية والإنجليزية في فيستنيك، المجلة نصف الشهرية للأبرشية الروسية في أمريكا. في المقال، يقتبس القديس رافائيل أولاً على نطاق واسع من رسالة البابا، ثم ينتقل إلى انتقاد الكثلكة بشدة. لا يظهر القديس رافائيل في الحقيقة دبلوماسياً أو مجاملاً بل يبدو أنه يعتبر هذا المقال دفاعاً عن الأرثوذكسية المهددة.

بداية نورِد مقتطفات من الرسالة البابوية كما نقلها القديس روفائيل:

رسالة البابا لاون الثالث عشر حول الحفاظ على الطقوس الشرقية

[...] إلى جانب كل هذه التدابير والمراسيم، كما ذكرنا سابقاً، بغرض تدريب الشباب الأصليين ليصبحوا خداماً مستحقين للكنيسة وفقاً لطقوس أجدادهم، نحن حريصون على إنشاء مدارس ومعاهد، كنسية وعلمانية على حد سواء، في المدن الشرقية التي قد تكون أكثر ملاءمة لهذا الغرض. ولتحقيق هذا الهدف، الذي يجب أن يكون ذا فائدة عظيمة للإيمان الكاثوليكي، قررنا تخصيص مبالغ كبيرة من المال، نأمل أن يتم المساهمة بها من خلال التبرعات الكاثوليكية. فمن المعروف أن خدمات الكهنة المحليين، الأكثر قبولاً والأكثر ملاءمة، يمكن أن تؤدي إلى نتائج أفضل من تلك التي يقدمها الغرباء، كما أظهرنا بإسهاب في رسالتنا العامة، الصادرة العام الماضي، حول مؤسسة المدارس الكنسية في شرق الهند.

ليس هناك شك في أن تعليم كهنة محليين من الشباب بهذه الطريقة، سيزيد من احترام المسيحيين الشرقيين للدراسات اللاهوتية والكتابية؛ سوف تزدهر دراسة اللغات القديمة على قدم المساواة مع دراسة اللغات الحديثة؛ كما أن ثروة العقيدة والأدب التي يزخر بها آباؤهم وكتّابهم، سوف تنتشر على نطاق أوسع، لخير الجميع. كل هذا سوف يؤدي إلى النتيجة المرغوبة وهي أنّ الكهنة الكاثوليك، كونهم البارزين في المعرفة ومثالاً ساطعاً في السلوك، سوف يجذبون بسهولة أكبر إخوانهم المنشقين إلى حضن أمهم (الكنيسة الكاثوليكية). وإذا كرّس الكهنة قلوبهم وجهودهم النشطة لتحقيق هذه الغاية، وعملوا معاً في المحبة الأخوية، فبالتأكيد، بمعونة الله ونعمته، سيأتي ذلك اليوم الميمون، عندما يصل الجميع إلى "وَحْدَانِيَّةِ الإِيمَانِ وَمَعْرِفَةِ ابْنِ اللهِ"، وهكذا يكون أن "كُلّ الْجَسَدِ مُرَكَّباً مَعاً، وَمُقْتَرِناً بِمُؤَازَرَةِ كُلِّ مَفْصِل، حَسَبَ عَمَل، عَلَى قِيَاسِ كُلِّ جُزْءٍ، يُحَصِّلُ نُمُوَّ الْجَسَدِ لِبُنْيَانِهِ فِي الْمَحَبَّةِ." (أفسس ٤:١٣-١٦).

وفي الحقيقة، تلك الكنيسة فقط هي القادرة أن تفتخر باسم كنيسة المسيح الحقيقية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بجسد واحد وروح واحد (أفسس ٤:٤).

ونحن لا نشك في أن إخواننا الأجلاء، البطاركة ورؤساء الأساقفة والأساقفة من أي طقس كاثوليكي شرقي، من منطلق المحبة البنوية التي يحملونها للكرسي الرسولي ولشخصنا، كما من باب الاهتمام لكنائسهم، سوف يقبلون بكل احترام وطاعة كل الأشياء التي قضينا بها، بشكل عام ومنفرد، وسوف يحرصون على أن يلتزم بها كل المعنيين بالأمر.

إن وفرة الثمار التي نتطلع إليها من هذه الرسالة، بل ونتوقعها بثقة، تعتمد بشكل رئيسي على غيرة أولئك الذين يمثّلون شخصنا في الشرق المسيحي. لذلك نوصي المندوبين الرسوليين بإلحاح شديد بأن يحرصوا على إيلاء الاحترام المناسب للطقوس المنقولة إلى تلك الجماعات من أسلافها؛ ولتقديم الاحترام الواجب لسلطة البطاركة وحث الآخرين على أن يحذوا حذوهم؛ وأن يتذكروا في تعاملهم الرسمي معهم وصية الرسول: "مقدمين بعضكم بعضاً في الكرامة" (رومية١٢: ١٠)؛ لإظهار الاعتبار وحسن النية تجاه الأساقفة وصغار الإكليروس والشعب، متحرّكين بنفس الروح التي ملأت الرسول يوحنا عندما أرسل سفر الرؤيا إلى "الكنائس السبع التي في آسيا"، مع التحية: " نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ الْكَائِنِ وَالَّذِي كَانَ وَالَّذِي يَأْتِي" (رؤيا ١: ٤)؛ ليثبتوا في كل مناسبة أنهم مبعوثون ومصالحون جديرون في قضية الوحدة المقدسة بين الكنائس الشرقية وكنيسة روما، التي هي مركز تلك الوحدة والمحبة.

فليستلهم جميع الكهنة اللاتينيين، كل الذين يعملون في تلك الأجزاء من أجل الخلاص الأبدي للنفوس، بنفس هذه المشاعر، ويتصرفوا بالطريقة المشار إليها، بما يتوافق مع نصائحنا وأوامرنا: ولا يكوننّ هناك شك في أن الله سوف يبارك جهودهم بنجاح كبير إذ هم يعملون في طاعة صارمة للحبر الروماني.

لذلك، فإن إرادتنا وأمرنا هو أن كل ما قضينا به وأعلناه وأمرناه في رسالتنا هذه، يجب أن يُراعى بحرمة من قبل جميع من يعنيهم الأمر. ولا يجوز التشكيك فيه أو التنازع عليه أو انتهاكه لأي سبب كان، ولا حتى بسبب أي امتياز، أو تحت أي لون أو ذريعة أخرى. بل يجب أن تصبح هذه المراسيم سارية المفعول بشكل كامل ومتكامل، دون عوائق حتى من الأحكام الرسولية، حتى لو كانت صادرة عن المجامع العامة أو المحلية، أو أي قوانين أخرى، حتى لو كانت مدعومة بالتثبيت الرسولي، أو أي عادات أو أنظمة - والتي نلغيها جميعاً ونرغب في أن تكون وتبقى ملغاةً، بشكل خاص وصريح، كما هي مذكورة فردياً ولفظياً في هذه الرسالة، بغض النظر عمّن قد يتصرف بما يتعارض معها.

كما نرغب أيضاً في أن تُعطى جميع نسخ هذه الرسالة، حتى المطبوعة منها، إذا كانت موقّعة من كاتب العدل لدينا، وإذا كانت محتومة بختم شخص يتمتع بسلطة كنسية مناسبة، نفس المصداقية التي يُفتَرض منحها لهذه الرسالة الأصلية.

أعطي في روما، من الفاتيكان، في اليوم الثلاثين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٩٤ من تجسد ربنا، في حبريتنا السابعة عشرة.

البابا ليون الثالث عشر

***

هنا رد القديس رافائيل على البابا:

مَن ليس على دراية بالأساليب الخفية للكوريا الرومانية [١] قد يتخيل، عند قراءة هذه الرسالة، أنها تضمن، بشكل كامل وإلى الأبد، حرمة الطقوس المقدسة والحقوق البطريركية لمختلف الطوائف المسيحية المتحدة مع روما، ضد أي محاولات للَيتَنَتِها أو هجمات من جانب الموفَدين البابويين وأنواع عديدة من الكهنة والرهبان اللاتين. لكن هل هكذا هو الأمر في الواقع؟ نبرز هنا سلسلة طويلة من الحقائق التاريخية التي تثبت هشاشة ومغالطة التصريحات والوعود البابوية، في ما يتعلق بالحفاظ على الأعراف المحلية والطقوس وحتى العقائد الخاصة بالكنائس التي أصبحت "متحدة" بالكنيسة الرومانية.

وللاقتناع بزيف هذه الوعود، يكفي أن نقرأ بانتباه رسالة البابا لاون الثالث عشر، التي يحظر فيها من جهة على مندوبيه ورهبانه التدخل، في المستقبل، في الشؤون الكنسية لدى الطوائف المسيحية الشرقية الخاضعة للكرسي البابوي، ومن ناحية أخرى، يسمح ويأذن لنفس المندوبين والرهبان اللاتينيين بالتحكّم بتربية الأطفال والشباب الأصليين...

أي شخص يعرف عن أساليب التعليم المتبعة في المدارس اللاتينية يرى بسهولة أن حظر التدخل في شؤون الكنيسة المحلية على الرهبان والكهنة لا يساوي شيئاً مقارنة بالسلطة الممنوحة لنفس الرهبان لإدارة المدارس. ومَن لا يعلم أن كل الشباب الذين تلقوا تعليمهم في المدارس اللاتينية يخرجون منها لاتينيين أكثر من المولودين لاتين حقيقيين؟ ما معنى هذه الرسالة البابوية إذاً، عندما يضع بين أيدي الكهنة والرهبان اللاتينيين أهم شيء على الإطلاق: تربية جيل الشباب؟

صحيح أن الرسالة تفرض على هؤلاء الكهنة والرهبان اللاتين واجب التأكد من أن الذين يدرسون في مدارسهم يتربّون على روح الطقوس والأعراف المقبولة في مجتمعاتهم. ولكن مَن يضمن أن الكهنة والرهبان اللاتين - وخاصة اليسوعيين - سوف يلتزمون إلى الأبد ودائماً بهذا المرسوم الذي أصدره البابا المسِنّ ليون الثالث عشر؟ لماذا تتلقى كل جماعة، عند انضمامها الأول إلى الكنيسة الرومانية، تصريحات رسمية ووعود مكتوبة من البابا، مفادها أن جميع طقوسها وعاداتها، وحتى عقائدها، سوف تُترَك دون أي تغيير: ومع ذلك، فإن التاريخ النزيه يُظهر أن أيّاً من المجتمعات التي "اتحدت" بروما لم تتمكن من الحفاظ على طقوسها واستخداماتها، أو حتى عقائدها، من التأثير اللاتيني.

إن أ.ب.لوبوخين، أستاذ أكاديمية سانت بطرسبورغ اللاهوتية، هو على حق تماماً في قوله، في رده على رسالة البابا العامة، إن التاريخ في هذا الصدد (أي في ما يتعلق بتأكيدات بابا روما الرسمية بشأن الحفاظ على طقوس وعادات الجماعات المتحدة بكنيسة روما)، يقدم دليلاً ملموساً جداً على أن أي أمر مهما كان مهماً لا يرتبط بأي ضمانات.

يكفي أن نتذكر أعمال العنف التي كانت علامة على "الاتحاد" الأكثر تعاسة في غرب روسيا، عندما سعت الليتنة الأكثر انعداماً للضمير، لا بل يمكن القول الصفيقة، إلى تدمير آثار الطقوس اليونانية، وحتى الجنسية الروسية، في المجموعات الاتحادية. تستمر هذه الليتنة حتى يومنا هذا في غرب روسيا. وكما لو أن الأمر هو السخرية من احتجاجات الرسالة، فإن اليسوعيين في غاليسيا يقتحمون بعنف الأديرة الروسية، تلك المعاقل التاريخية للوعي الديني والقومي للشعب الغاليكي، ويحولونها إلى مواقد للدعاية اللاتينية البولندية.

نقول إن كل هذا يتم أمام أعيننا – وهو حقاً ضمانة كافية لصدق التأكيدات التي قدمها "وكيل الله القدير على الأرض"...

ولكن، بصرف النظر عن الوعود المتعلقة بالحفاظ على الطقوس والأعراف المحلية، تحمل الرسالة البابوية الوعد بحماية حقوق البطاركة والأساقفة الاتحاديين ضد أي هجمات أو تعديات من جانب المندوبين والمبعوثين اللاتين. ولكن، إذا كان البابا لاون الثالث عشر قد قرر حقاً استعادة وتأكيد حقوق البطاركة والأساقفة الاتحاديين التي داسها ممثلوه في الشرق بالأقدام – هذا إذا كان هو نفسه يعتبر أن هؤلاء البطاركة والأساقفة هم بطاركة وأساقفة حقاً - فعملياً ما معنى تعيين أي أساقفة لاتين وحتى بطاركة للطوائف السورية المتحدة مع كنيسة روما، في حين أن لكل واحدة منها بالفعل بطريركها أو أسقفها الأصلي؟

إذا كان كل الهدف من تعيين هؤلاء البطاركة والأساقفة اللاتين هو رعاية الحاجات الروحية لمختلف الكاثوليك الأجانب المقيمين في سوريا (الألمان والفرنسيين والإيطاليين وغيرهم)، وليس إدارة شؤون كنائس الجماعات الاتحادية وتقييد حقوق وكرامة بطاركتها وأساقفتها الأصليين، وإذا كان الكاثوليك الأجانب لا يرغبون في الخضوع لرجال الدين المتحدين الأصليين في شؤون الكنيسة (على الرغم من أن هذا الرفض يتعارض مع الروح الحقيقية للاتحاد)، فإن لهم الحرية للتمتع بالخدم الروحية التي يقدمها اليسوعيون والفرنسيسكان والدومينيكان والكبوشيون، أو أي من الرهبان اللاتين الذين يبلغ عددهم في سوريا عشرة أضعاف عدد المقيمين الأجانب الكاثوليكيين. وإذا كانت قواعد رهبنة تلك الأخويات المتعددة لا تسمح لأعضائها بأداء أي خِدَم للناس العاديين، أليس من العادل أن يرسل البابا لهذا الغرض كهنة لاتين وحسب، بدلاً من البطاركة

والأساقفة اللاتين - ولو لمجرّد احترام كرامة البطاركة والأساقفة المحليين، كما القوانين والأحكام الرسولية الصادرة عن المجامع المسكونية، التي تمنع منعاً باتاً تعيين أسقفين لنفس الأبرشية؟

أين، على سبيل المثال، هو المعنى في تعيين بطريرك لاتيني في القدس، حيث للكاثوليك الأصليين بطريرك خاص بهم؟ بل أكثر من ذلك، ما معنى الاتحاد المزعوم بين مختلف الكنائس الشرقية في سوريا وكنيسة روما، ولكل واحدة منها بطريركها الخاص، وكل واحد من هؤلاء البطاركة المتحدين يسمي نفسه بطريرك أنطاكية؟ والسؤال الآن هو مَن يُعتبر بينهم الخليفة الحقيقي للرسول بطرس في كرسي أنطاكية الرسولي؟ أهو البطريرك الماروني أم الملكي أم السرياني أم الكلداني أم الأرمني أم أخيراً البطريرك اللاتيني؟ وما هو أكثر شذوذاً في موقف هؤلاء البطاركة المتّحدين هو أن البعض منهم، كالبطريرك الملكي، يعتبرون أنفسهم بطاركة ليس فقط على أنطاكية، بل على أورشليم والإسكندرية، في معارضة مباشرة للأحكام الرسولية التي لا تعترف بوجود أسقف واحد يشغل كرسيين، فكم بالحري ثلاثة! والأمر الأكثر غرابة هو أن هذا البطريرك نفسه، المتوّج على ثلاث كراسٍ رسولية، يخضع مع كل كراسيه الثلاثة لكرسي روما!

ويترتب على كل هذا أن الهدف الرئيسي لكل هذه المنشورات والرسائل البابوية ليس اتحاد الكنائس أو الحفاظ على الطقوس والعقائد، بل مجرد إخضاع واستعباد جميع الشعوب المسيحية لبابا روما. وفي أعين الباباوات، لا الطقوس ولا العقائد لها أهمية الاعتراف بعقيدة سيادة البابا. إن أي جماعة تعترف بهذه السيادة، حتى لو كان هرطقة، تُعتبر عضواً في الكنيسة الكاثوليكية. وهذا ما يظهر بشكل كافٍ من خلال المذاهب المتناقضة وحتى الهرطوقية الموجودة بين العديد من الطوائف المسيحية في سوريا. والتي هي، رغم ذلك، "متحدة" مع كنيسة روما. وهكذا، على سبيل المثال، فإن بعضهم (اليعاقبة والأرمن والأقباط) يتمسكون بالعقيدة الخاطئة حول طبيعة يسوع المسيح الواحدة؛ وآخرون يدركون فيه طبيعتين؛ البعض يعترف بمشيئتين في المسيح، والبعض الآخر (الموارنة) بمشيئة واحدة فقط؛ ويتمسك البعض بالعقيدة النسطورية عن المسيح (الكلدانيين)؛ آخرون يتبرؤون منها. يقبل البعض إضافة "ومن الابن (Filioque)" في قانون الإيمان، بينما يرفضها آخرون؛ البعض (الأرمن) يستخدمون الفطير في سر الإفخارستيا، والبعض الآخر يدينه؛ البعض يوافق على زواج الكهنة والبعض الآخر يمنع ذلك؛ ويوجّه البعض كنائسهم إلى الشرق، أو الغرب، أو بشكل عشوائي، إلى الشمال أو الجنوب، الخ. وعلى الرغم من كل هذه التناقضات في الطقوس والعقيدة، تُحسَب كل هذه الجماعات أعضاء في كنيسة روما، لأنها تعترف بسيادة البابا عليها! أليس هذا دليلاً واضحاً على أن باباوات روما لا يفكّرون في طقوس الكنيسة ولا في العقائد المسيحية الأساسية، مقارنة بعقيدة تسلطهم التي اخترعوها بأنفسهم؟

فليكتبْ الباباوات وينشروا ما يحلو لهم من المنشورات والرسائل – فلن يتمكنوا أبداً بهذه الوسائل من إخضاع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لسلطتهم. لقد كانت الكنيسة الأرثوذكسية، وستظل إلى الأبد، الكنيسة الاعة المقدسة الرسولية الواحدة، التي لن تقوى عليها لا مكائد البابا وحسب، بل ولا حتى أبواب الجحيم نفسها.

الأرشمندريت رافائيل

Source: St Raphael Hawaweeny vs the Pope of Rome. Posted on January 23, 2024 by Matthew Namee.
https://orthodoxhistory.org/2024/01/23/st-raphael-hawaweeny-vs-the-pope-of-rome/

تعليق المترجم

١. النص الأصلي، على مدونة Orthodox History مُعدّ كعرض تاريخي لرسالة البابا لاون الثالث عشر وردّ القديس رافائيل عليها. ولما كانت صفحات الفاتيكان العربية تقدم ترجمة عربية لغالبية الرسائل البابوية التي كما تذكر الرسالة أعلاه تلغي كل ما يسبقها "حتى لو كانت صادرة عن المجامع العامة أو المحلية"، حاولنا إيجاد ترجمة كاثوليكية رسمية فلم نجد. لهذا قمنا بترجمة النصوص التي عرضها القديس رافائيل من الرسالة. أما

الأجزاء الـواردة في المقـال من رد القـديس رافائيل فلم نجـدها في أعمالـه الكاملـة ولا بدّ أنهـا في كتاب "تسريح النظر في منشور البابا لاون الثالث عشر" للقديس رافائيل، والذي لم يتوفر في أي من المكتبات العامة.

٢. كان الهـدف من مباشرة الترجمـة مزدوجـاً. فمن جهـة نريـد تعريـف المؤمـنين بفكـر قـديس أنطاكية الجديد، ومن جهـة أخـرى نريـد هـذا النص رداً على مقالـة المطـران الاتحـادي كـيرلس سـليم بسـترس في جريـدة النهـار، السبت ٢٠ كانون الثاني ٢٠٢٤، بعنـوان "بطريركية أنطاكية رائـدة الوحـدة المسـيحية". ولكن بعـد أن علّـق صـاحب السـيادة باسـيليوس، ميتروبوليت عكار، والأرشـمندريت يعقـوب خليل، عميد معهـد القـديس يوحنا الدمشـقي اللاهـوتي، على هـذه المقالـة، والـرجلان مرجعيتان كنسيتان بحكم موقعهمـا وعلمهمـا، وردّاهمـا يعكسان الرصانة الكنسية والمعرفة العلمية، وجدنا أن هدفنا الثاني قد تحقق بشكل يفوق كثيراً ما كنا لنقدمه، شكرنا الرب على افتقاده لنا بسماع أصوات كنا بدأنا نخشى أن أنطاكية خلت منها.

[١] الكوريا الرومانية هي الجهاز الإداري الذي يساعد البابا في إدارة الفاتيكان بشكل خاص والكثلكة بشكل عام. تطور الكوريا مع الـوقت وصـارت تضـم المشرفين على مؤسسـات الفاتيكان كالبنك ومختلـف الـوزارات واللجـان. في وقت مـا كانت حكـراً على الإكليريكيين ومؤخراً ضُم إليها العديد من العلمانيين. تاريخياً، الكوريا مسؤولة عن ما يُنسَب إلى الفاتيكان من ممارسات سياسية وغيرها. [المترجم]